مسرحية

تجيئين كالماء و تذهبين كالريح



أحمد ابراهيم الفقيه

تجيئين كالماء وتذهبين كالريح

استهلال

لعل هذا الكتاب الذى يحوى مقالات ذات طابع تأملى تتناول جوانب عامة من الحياة هو أقرب الكتب القليلة التـى ألفتها إلى نفسى، وإذا كان الكاتب القصصـى أو المسـرحى يأتى إلى القـارئ متنكـراً فـى أرديـة أبطـال قصصـه ومسرحياته، واضعا على وجهه قناعا وعلى رأسـه شـعرا مستعارا، فإن هذا الكتاب بلا شخصيات ولا أبطال ولا أقنعة ولا شعر مستعار، أنه بصراحة يحمل ملاحظاتى وانطباعاتى ورأيى المتواضع فى جوانب من حياتنا.

حقاً، لقد حاولت أن أقترب فى بعض هذه المقـالات من المعالجة الفنية التى تجعل المقال شيئاً أقرب إلى القصـة لكنه ليس قصة، أو هو شيء تمرد على شكل القصة وأبى ألا أن يكون مقالا، أبى ألا أن يكون وجهى ولساني.

وهكذا فإننى سأستميحكم العذر وأعود إلى تقليد قديم جميل لم يعد بعضنا يحفل به كثيراً هو كتابة الإهداء فى مقدم الكتاب، وأن أهدى هذه الورقات من كتاب العمر، إلى أحـب المخلوقات إلى نفسى.

إلى أطفالى إبراهيم ولمياء وهشام ...

ومعذرة إن أطلت فى التقديم، أشكركم وأدعكـم الآن مع تقليب هذه الصفحات أن طاب لكم ذلك.

مقابلة صحفية مع نملة

لا أخفى عليكم إعجابى العظيم بالنمل، لا لشـيء إلا لأنه شعب يحترم نظام الطابور، بل إننى لا أشك لحظة فـى أنه أول شعب فوق الأرض فكر فى اختراع هذا النظام، وهو نظام لا يعرف مدى عبقريته إلا من عاش فى مدينـة مثـل مدينتنا لا يحترم أحد فيها طابوراً أو نظاما، وما اجتمع منهم ثلاثة من الناس إلا وأنشئوا فيما بينهم زحاما، حقا إن هنـاك أشياء أخرى تضيف إعجابا إلى هذا الإعجـاب مثـل هـذه الروح العملية التى يتمتع بها النمل، وهذه الحيويـة الدائبـة، وهذا التفانى فى حب العمل والإخلاص له والطريقة المثلـى التى يؤدونه بها... وما مررت يوما بسرب من النمل يـؤدى عمله بهذا النظام الدقيق وهذا الإحساس بالمسؤولية الـذى لا نظير له فى عالمنا، إلا وتمنيت لو أتيحت لـى فرصـة أن أجرى حديثاً مع أحد أفراده وأتعرف من قريب عن سر هـذا الشعب النملى العظيم، لم يصل بى الغرور لأن أفكـر فـى

مقابلة ملكة النمل فلا شك أن تلك دونها حـراس وحجـاب ومراسيم علاوة على مسؤولياتها الملكيـة الكثيـرة التـى لا تسمح لها بإجراء مقابلات خارج نطاق العمل ولكنى يكفى أن ألتقى فى حوار مع إحدى نساء النمـل العـاملات، هـؤلاء الإناث اللاتى لا هم لديهم ولا مسؤوليات فى الحيـاة سـوى العمل، ليس فى حياتهن جنس على الإطلاق، ولا حمـل... ولا رضاعة ولا إنجاب، وإنما تفرغ كامل للعمـل، وعبـادة خالصة له، لا اهتمامات أنثوية، ولا علاقـات غراميـة ولا مشاوير إلى صالونات التجميل... ولا زواج ولا طـلاق ولا مهور ولا نفقة ولا محاكم، وإنما شيء واحـد هـو العمـل المتواصل المستمر.

ولم يكن ليتأتى لى ذلك، لولا أنه ذات ليلة وجـدتنى فجأة وجهاً لوجه مع نملة، نملة رقيقة مؤدبة، فى ملامحهـا عذوبة وعلى محياها سمة من جمال، بل هو فى الحق أجمل نملة قابلتها فى حياتى، كانت وحيدة تركت فى مكان سـربها وتسللت بمفردها إلى غرفة مكتبي، وأمام هذه الفرصة وجدت نفسى أنساق فى توجيه الأسئلة إليها والدخول فـى دردشـة تتناول شتى جوانب الحياة معها، كانت كما قلت سابقاً نملـة

جميلة تتمتع بأخلاق عالية كما بدا لـى مـن مظهرهـا، ولا أدرى إذا ما كان له نشأة ريفية ولكنى وجدتها متحررة مـن كل عقد الخوف والخجل، وعلى خبرة بأسلوب المعاملة فـى المجتمعات الراقية لكنه كان واضحاً أنها لـم تـذهب إلـى الجامعة على الإطلاق فهى لم تتشدق أمامى باسم من أسـماء النظريات الحديثة، ولا أدرى أيضاً إذا مـا كانـت تشـاهد الإذاعة المرئية ولكن سلوكها كان سلوكاً راقياً يؤكد أنها لـم تفتح جهازا مرئياً فى حياتها، كانت بالتأكيـد أفضـل نمـاة شاهدتها فى حياتى، فقد دخلت بتؤدة ووقار إلى غرفة مكتبى، وطافت بها، ولم يكن يبدو عليها أى نوع مـن الارتبـاك أو الوجل تماما كما لو كانت تتمخطر فى غرفة نومها، ولعلهـا كانت تعرفنى لكن لا يبدو أنها تقرأ مقالاتي، بل لا يبدو أنها تهتم بقراءة الصحف أو الأدب كثيراً، أشك أنها علـى علـم بنظريات (فرويد) فى علم النفس، أو أنها تحفظ شيئاً مما قاله نزار قبانى فى الغزل، أو أنها تدمن قراءة حسنين هيكل فـى مقالة الأسبوعى، حتى مجلة المرأة لا أعتقد أنها تقرأها كثيراً فهى لا تستعمل أى نوع من أنواع المساحيق أو أحمر الشفاه أو الرموش الصناعية. كانت فيما يبـدو فخـورة بجمالهـا

الطبيعى بلا زيف ولا أصباغ ولا رتوش، ولعل السبب فـى ذلك أنه ليس لها زوج تتجمل له وتريد أن تكون حلوة شهية فى عينيه.... ولقد كان هذا أول سؤال أردت أن أبادرها به، إذ كيف لأنثى فى جمالها وصباها أن تحيا دونمـا زوج، وأن تمضى حياتها كلها دون أن تمارس غريـرة مثـل غريـزة الجنس؟

ألقيت إليها بالسؤال ... ولقد أجابت مشـكورة بكـل صراحة ووضوح ... وقالت وهـى تضـع النقـاط علـى الحروف.....

لم يكن الجنس فى يوم من الأيام هدفاً... لقـد كـان الجنس دائما وسيلة لاستمرارية الحياة، ولقد قسمنا بيننا العمل بحيث تتفرغ واحدة منا للإنجاب هى الملكة، ويتفرغ البقيـة تفرغاً كاملاً للعمل ... وبهذا يكون قد انتفى أى سبب للجنس فى حياة أمثالى من النساء العاملات.

أدركت أنها تشير من طرف خفى إلى هذه الهستيريا الجنسية التى تملأ عالمنا... والتى تجعل من ممارسة الجنس هدفاً وغاية... وتبين لى أن لديها فكرة لا بـأس بهـا عـن عالمنا، وأن هذه الماكرة قد استمعت إلى كـل مـا أنـتج (

البيتلز) من أغان... وأنها تدمن الاستماع إلى (توم جـونس) فى أكثر أغانيه إباحية... وإلا من أين استمدت هذه اللعينـة معلوماتها؟

وتظاهرت بعدم الاكتراث وواصلت الحديث قائلا:

ولماذا لا تشتركن جميعاً فى العمل والإنجـاب كمـا تفعل النساء فى عالمنا... ولماذا تبقى ممارسة الجنس حقـاً مكتسباً للملكة وحدها؟

قلت ذلك بلهجة من يفاخر بهذه المعاملة العادلة التى لا تضع فرقاً بين الملكات والخادمات فى عالمنا... وجاءنى الجواب...

كيف يمكن لى أن أكون بنت الملكة... لو فعلنا ذلك؟

ضاع من فوره زهوى وافتخاري ... تذكرت لحظتها أن هذه النملة العاملة الصغيرة الشأن هى حقاً بنت الملكـة، فطالما أن الملكة وحدها تحتكر الإنجاب فإن كل شعوب النمل بما فيها من ذكور طائرة وقوى نسائية عاملة قد جاءت مـن أرحام الملكات...

آسف يا صاحبة السمو...

قلتها على الفور مذكرا نفسى بـأن علـى أن ألـزم حدودى وأن أتحفظ فى كلامى فأنا الآن أخاطب امـرأة مـن الطبقة العالية يجرى فى عروقها الدم الأزرق.

إذا فقد اختفى بذلك كل صراع طبقـى فـى مملكـة صاحبة الجلالة.. فأنتم الآن جميعاً طبقة واحدة رفيعة الشـأن من أبناء وبنات الملكات.. أليس كذلك؟

لا صراع فى المملكة النملية الواحدة، فنحن قد قسمنا بيننا الأدوار، ملكة تتفرغ للإنجاب كى تضمن للنسل النمـلى أصلا ملكياً رفيعاً تفاخر به بين الأجناس.. وذكورا مجنحـة مهمتها أن تطير وراء الملكة وتقوم بإخصابها ثم تموت بعـد ذلك، ونساء منتجات عاملات ملتصقات بالأرض، لا هم لهن ولا شاغل سوى العمل المتواصل الدؤوب!!

ولا شك أن فى ذلك لمزا واضحا للنساء فى عالمنا، بل لعلها تقصد النساء الليبيات بالذات، وتكشـف لـي بأنهـا ليست نملة سهلة كما ظننت لأول مرة وأن على أن أحتـرس منها، بل أننى بدأت فعلا أشك فى حسن طويتها، فقد تكـون نملة حاقدة قتل لها أحد الناس فردا من أبناء عشيرتها، فأنـا أعرف المجازر التى نرتكبها كل يوم فى حق شعوب النمل،

وكم هدمنا للنمل من بيوت، لا شك أنها تحملنـى الآن كـل جرائم الجنس البشرى فى حق أبناء جنسـها... ولا أدرى إذا ما كان ثمة بقية من أمل فى عقد نوع مـن الصـداقة بينـى وبينها.. وأردت أن أعبر لها عن حسن طويتى وأبادرها بفتح باب التسامح والمودة.

ما أنا يا صغيرتى إلا معجب كبير بشـعوب النمـل العظيمة، ولقد احترمت مدنكم وقراكم أينما وجـدت.. لقـد رأيت لكم ممالك تنتشر فى كل مكان... فما ذهبت إلى بقعـة فى الدنيا إلا وجدتها تمتلئ ممالك نملية... ولدى سـؤال ... هل ثمة اتصال بين شعوبكم، وهل لصاحبات الجلالة سـفراء فى بلاد المملكات النملية الأخرى؟!.

إن لنا كما تعلم دستوراً فى الحياة والعمل نتبعه أينما كنا.. ومهما تباعدت بيننا السبل، وفى هـذا الإطـار فـإن التعاون لا ينقطع، فمثلاً عندما تموت إحدى صاحبات الجلالة فى إحدى الممالك وليس هناك من يخلفها على العرش.. فإن أى مملكة أخرى يتواجد بها أكثر من ملكة أو لـديها أميـرة معدة لهذا الغرض عليها أن تبعث بها فورا إلى هناك.. لكى

لا يتقوض صرح ذلك الشعب النملى وتذهب ريحـه. إلـى الأبد!

قلت ضاحكاً محاولا التبسط مع هذه النملة الصـغيرة وكسب ودها:

إذا فإنه ليس لديكم كتلة شرقية وأخـرى غربيـة.. وليس هناك خط هاتفى أحمر يربط بين أكبر قوتين نملتين !!

استغربت صاحبة السمو..

طالما أن كل شعب من شعوبنا يعيش فـى سـلام.. فلماذا الفتن والتكتلات!؟.

امتلأت غيظاً..

لا فائدة مطلقاً من محاولة التبسط مـع هـذه النملـة اللعينة أو كسب ودها.. فقد بدا واضحا أنها تتخذ منى موقفـا عدائيا وأنها تحاول اضطهادى كإنسان... وتعيرنى شخصـياً بكل ما يملأ عالم البشر من صراعات.

لقد كذبت على بتلك الوداعة المفتعلة فـى سـلوكها، وتظاهرت بأنها لا تقرأ الصحف ولا تشاهد إذاعتنا المرئيـة، فى حين أنها كل مساء تتلصص من طرف خفى إلى الشاشة الصغيرة، بل أكاد أجزم أنها تجيد لغـة أجنبيـة وأن لـديها

اشتراكاً فى كبريات الصحف العالمية، وقد تكون هى نفسـها رئيسة جهاز المخابرات فى مملكتها النملية اللعينة.. وعندها أردفت قائلة:

ليس لدينا تكتلات وليس لدينا تمزقات داخل الشعب الواحد..

أدركت أنها الآن تعيرنى فى صـميم عروبتـى ... وأنها على دراية كاملة بأحداث الدنيا، فهى تسـتمع بأذنهـا الممسوخة إلى جميع نشرات الأخبار، بل إن إذاعـة لنـدن بالذات هى مصدر معلوماتها عن حالة العالم العربي.. لكـن مهلا أيتها الحشرة اللقيطة التى لا تعـرف لهـا أبـا علـى الإطلاق... والتى أراهن أنها لن تستطيع إسـتخراج شـهادة ميلاد واحدة من أى بلدية فى العالم.. سأعرف كيف أرد لك الكيل أيتها النملة الثعلبة... إن لك رأسـا فـى حجـم رأس الدبوس، لكنه دبوس يمتلئ صدأ وسما، إن ا لـم يجعلـك مخلوقة مقسومة إلى نصفين يجر أحد نصفيك النصف الآخر إلا بسبب مكرك ودهائك.. وقلت لها على الفور:

إنك تكذبين ... إن معلوماتك التى تستقينها من إذاعة لندن اللعينة.. معلومات كاذبة!

لم تغضب...

بدا لى أنها تضحك وهى ترانى منفعلاً علـى هـذا النحو... فقد فتحت شدقاً غير مرئى وأرسلت قهقهـة عاليـة سخرية بي... وازداد غيظى لهذه النملـة الجاسوسـة التـى ظننت واهما أنها لم تأت إلى مكتبى إلا للتعارف والمجاملـة، وزاد يقينى أنها هى رئيسة جهاز مخابرات النمل وقد تكـون تلقت تدريباً لدى المخابرات الأمريكية نفسها.. لكن مهلا أيتها العانس التى تضحك دونما سبب، والتى تظن كـذبا أن الـدم الأزرق يجرى فى عروقها فى حين أنه ليس لها عروق على الإطلاق حتى وإن كان لها عرق واحد فأنا أعـرف كيـف أجعل هذا الدم يتجمد فيه رعباً.

سأجعلك تندمين على كل دقيقة استمعت فيهـا إلـى نشرات الأخبار من إذاعة لندن.. وقبل أن أفتح نار كلمـاتى بادرتنى فى هدوء أعصاب يغيظ الموتى.

لقد غضبت..

لعلكم كنتم صنعتم عالما يملأه السلام لم عرفتم كيف تتحكمون فى أعصابكم!

من أين لك أن تفكرى لنا أيتها الحشرة اللقيطة.. إننى أشك أن يكون فى رأس بحجم رأسك مخ على الإطلاق.. بل

أنت ليس لك حتى معدة أو أمعاء... سـأعرف الآن كيـف أعلمك الأدب أيتها الأنثى التى لا رحم لهـا ولا أثـداء ... وقلت من فوري:

قولى إن كنتم قد حققتم تقدما على الإطلاق.. أليست هذه هى حياتكم منذ بدء الخليقة.. هل تقدم معشر النمل قيـد أنملة واحدة إلى الأمام... رغم الجهد والكد والعناء وحرمان أنفسكم من الجنس والسهرات والمسارح والأفـراح.. ألسـتم تدورون فى حلقة مفرغة منذ نشأتكم الأولي، هل اختـرعتم اختراعاً واحداً، هل حققتم إنجازاً علمياً مهما كان ضئيلا، هل طورتم ولو قليلا فى أدواتكم أو أسلوب معيشتكم، أو ارتفعتم بمستوى حياتكم.. هل كان أصلكم قرداً ثم حققتم رقيا وتدرجا فصرتم أناسا مثلنا.. لقد كنتم منذ بدء الخليقة نملاً.. وتعيشون نملا وتموتون نملا وتنتهى الدنيا وأنتم نمل!

وتهيأ لى للحظة أننى قد أفرغت لهبا ناريـا سـوف يحرق نملة المخابرات هذه إلى الأبد، وأننى أفحمتها وأعدتها إلى أصلها، ووضعت حدا لكل ما فى سلوكها مـن كبريـاء وقلة أدب وذوق. ولم أكن أبدا أظن أن هذه النملـة التعسـة

تدخر لى ردا ما كان يخطر على بالى.. فقـد قالـت علـى الفور:

ما الذى حققتموه أنتم بإنجازكم سوى تقريـب شـبح الدمار من عالمكم وعالمنا.. إننا سعداء بحياتنا كما هى ولسنا بحاجة إلى طموح يدمر هذه السعادة كطموحكم!!!.

هكذا قالتها فى لهجة عارية من الأدب، بوقاحة وقلة ذوق ليس لهما مثيل، ولقد كان كلامها صدمة عنيفة لشعورى وإحساسى، فهذه أول مرة أقابل فيما نملة صفيقة إلـى هـذا الحد.

لقد عشت طول عمرى رجلا محترما لا أسمح بتلقى الإهانات، بل أن علاقتى بالنمل لم تتجاوز فى يوم من الأيام حدود الاحترام والتقدير ولم أكن أظن فى يوم من الأيام أنـه يمكن لنملة مهما كان شأنها أن تخاطبنى بمثل هذه اللهجـة.. إلى أن جاءت هذه النملة اللقيطة تفسد نظام حياتى، وتوجـه إهاناتها البالغة إلى شخصى وبنى جنسي.. صرخت لعامـل الصحيفة الذى يقف قريباً من مكتبى أن يطرد هـذه النملـة اللعينة فأنا لا أريد أن أرى لها وجها بعد اليوم... وتأسـفت

بينى وبين نفسى لمهنة الصحافة التى أوحت إلى بإجراء هذه المقابلة الصحفية المليئة بالإهانات...

هذه المقابلة التى لم أخرج منها سوى بجرح غائر فى كبريائى الإنسانى !

اذهب وقلها فوق الجبل

لا تتركها حبيسة داخل جدران صدرك، أو ترددهـا فقط فى خاطرك أو تقلها سراً بينك وبين نفسك أذهـب الآن وقلها فوق الجبل فليس هناك أخطر وأشرس وأكثر إيذاء من الكلمة الحبيسة، إنها تربى بداخلك أنيابا ومخالب تأكـل بهـا جوفك وتنهش صدرك.. وتحيل حياتك كلها إلـى جحـيم لا يطاق !!

اذهب وقلها فوق الجبل.. لا تهمس بها همسـا لمـن حولك من الناس، لئلا تغضب منك وتنفجر كالقنبلة بين يديك فما خلقت الكلمة إلا لتكون طليقـة تـرى الهـواء والنـور وتركض كالجياد البرية قوية فى ضوء الشمس.. فاذهب الآن واقذف بها هناك !!

اذهب وقلها فوق الجبل ... فستجد هناك كـل مـن يسكن الجبل من كائنات حية تستمع إليك بإنصـات، سـتجد أسراباً من كرام الطيور وأكثرها نبلاً وكبرياء... تطوف من حولك وتصفق بأجنحتها لكلماتك..

وأرضاً سمحة، رحبة، مترامية الأطـراف ترهـف آذانها لما تقول من كلام وتردد فى إجلال مقاطعة الأخيرة..

وستجد سماء زرقاء لا حدود لها وهى قريبة منك.. تسـتمع فى صمت إلى كلماتك!!

اذهب، من فورك، وقلها فوق الجبل... وليكن جـبلا عاليا، شامخا، عزيزا، يمتلئ غرورا وعجرفة وكبرياء قـف فوق قمته البعيدة.. وانظر إلى أسفل الجبـل وقـد صـارت الأشياء فى سفحه ضئيلة صغيرة، فقدت أحجامهـا الكبيـرة، وتحولت تحت أنظارك إلى حصى، خاطبها وأنت هناك رجل الموقف وسيدة عاليا، وقويا، وقريبا من قبة السماء.. وانتظر كيف تستقبل دنيا الجبل ما تقوله من كلمات.

اذهب إلى الجبل تسلق صخوره وأحراشه وأوعاره.. دع أصابعك تتسلخ وأنت تصعد إليه، وليتمزق فوق أحراشه كل ما تملك من لباس، ولتـدم أحجـاره سـاقيك وقـدميك وذراعيك.. ولتملئ عيناك وأذناك وأنفك وفمك بغبار المشوار الصعب ولتتقطع أنفاسك وليتصبب العرق غزيراً من جبينك وصدرك وقفاك متعفرا بأتربة الجبل وأوحاله وأنـت تجهـد نفسك فى الطلوع إليه... ولتصل إلى قمته العالية وأنت عار من كل ثياب كما هو الإنسان الأول مـدمى البـدن كمسـيح انتهوا للتو من صلبه، منهك مشعث الشعر، تغطـى جسـمك

الأوحال والأتربة... متعب ومغبر ومنتصر.. امـلأ رئتيـك بالهواء الطلق القوى ثم قف هناك بقامة متماسكة عاليـة... حتى يزداد الجبل بك علوا ... ثم دع صوتك ينطلق مجلجلاً، عميقاً قوياً... وقلها فوق الجبل...

قلها فوق الجبل باللغة التى تشاء، وبالطريقـة التـى تريد ... لتكن آهات قوية صادرة من أعماق القلـب، لـيكن صراخا بدائيا كما هى لغة الإنسـان الأول لـيكن عـواء أو عويلا هستيريا يرمى القلوب بالرعب.. ليكن كلاما مضـغما غير واضحا ولا مفهوم.. فلن تجد سيبويهيا متحذلقا يحاسبك على الأخطاء النحوية... أو صوتا يرتفع من سـفح الجبـل يرميك بالهوس والجنون.. أو آخر يطالب بأخذك إلى بيـت الأمراض العصبية، فأنت هناك رجل الموقف وسيده وسيفهم الجميع ما تريد أن تقول.

اذهب وقلها فوق الجبل ... أنت هناك سيد الكلمـات وفارسها حيث تنطلق قوية.. مجلجلة من فوق القمة العاليـة. وستجد الكلمات من يحتفل بها فور صدورها مـن شـفتيك.. ستحنى الرياح قاماتها تحمل فوق ظهورها كلماتك.. تركض

بها عبر الأركان الأربعة وتبلغها لكل من تلقـاه مـن طيـر وشجر وعشب وكائنات حية...

اذهب وقلها فوق الجبل... بل لا بد لك أن تـذهب، ولا بد لك من أن تقولها من فوق الجبل..

فهى رسالة أنت الذى خلقت لها، وأمانة لا حق لـك فى أن تخفيها بين ثيابك أو تحتفظ بها لنفسك بين أدراجك أو تمنعها من أن تجد طريقا إلى الشمس والهواء.. وإنما عليـك أن تقاسى متاعب الرحلة وأهوالها وأن تعانى ضنك المشوار وإجهاده.. وأن تتحمل مشقة الطريق فى سبيل رسالتك التـى يجب أن تصل بها إلى الجبل وتجهر بها من فـوق قمتـه.. فاذهب من فورك إليه، وقلها جهارا، وبكل مختزنات القـوة فى جوفك وحنجرتك.. ودعها تنطلق من هناك وتنتشر فـى أرجاء الدنيا!

اذهب وقلها فوق الجبل... ولسوف ترى أن للجبـل سحرا به وحده تتحول الكلمات.. من كلمات إلـى كائنـات أخري، ما أن تخرج من فمك حتى تصير لها مناقير ومخالب وينبت لها الريش والأجنحة... وتطير فى أسراب كبيرة تملأ الفضاء... تنطلق من هناك، تختـرق الحصـون، وتقـتحم

قصور السلاطين وتصل إلى أعداد الإنسانية فى مخـادعهم تفقأ أعينهم وأعين حراسهم وتكون جيشاً يحارب فى صـف الحق والعدل والحرية.. فهكذا تمامـا فعـل كاتـب زنجـى معاصر اسمه" جيمس بالدوين" بكلامه" فوق الجبل" فهز فـى أمريكا مؤسسات الاحتكار والرأسمالية!!

اذهب وقلها فوق الجبل..

اذهب الآن من فورك وقلها فـوق الجبـل... فهـذا أفضل ألف مرة من أن تكتبها على أعمدة صـحيفة ليبيـة، تخاطب قراء أعزاء لم يهتموا يوما بما يكتب... ولا يعرفون الفرق بين من كتب.. ومن لم يكتب...

إذا ... اذهب وقلها فوق الجبل!!

كن واقعيا فاطلب المستحيل

الثورة لا تنطلق بعيداً عن المعطيات التى يطرحهـا الواقع فبالثورة وحدها يتجاوز الإنسان ما يحمله هذا الواقـع من سلبيات ويؤكد ما فيه من معان إيجابية وينطلق فى رحلة التغيير والكشف والارتقاء. لذلك فإن اللافتة التى كان يحملها الملونون فى مسيرتهم بإحدى الدول الأوروبية كانت تقول:

كن واقعياً فاطلب المستحيل فـالثورة بـالرغم مـن ارتباطها بأرض الواقع فهى تطلع إلى النجوم ورحلـة وراء الخيال وتطبيق لما فى رؤوسنا من أحلام، وهى رغبة عارمة قوية فى تحقيق المستحيل... إنها علـم معالجـة المسـتحيل وتطويعه، وجعل المستحيل ممكنا. إنها الحلم بصوت عال.. فالمعاجم والقواميس تسمى الثورة علم تغييـر المجتمعـات، وهذا التغيير لا بد أن يكون حاسما وسريعا وفعالا وهو لا بد أن يكون تغييرا إلى الأفضل. فالثورة إذا هى الواقع بما فيـه من أتربة وأوحال وسلبيات ممتزجا بالحلم فى عـالم أجمـل وأبهى وأروع.. نبغى أن نصل إليه سريعاً بفعل حاسم هـو الثورة!

ومن أجل ذلك كله كانت تقوم الثورات.

إنها تقوم لتلبية هذا النداء الذى يتوهج مضيئاً كاللهب فى قلب الإنسان ويطالبه دائما بتغيير الواقع الذى يعيشه إلى واقع أفضل، ومن أجل تحقيق هذا التغيير فهو لا يترك الأمر للزمن وحده يعالجه، إنه يتدخل ويفرض على الزمن إرادته، يختزل مسافاته، ويجعل الزمن يمضى معه سريعا فى خدمة أهدافه.. حقا إن عجلة التقدم لا تمضى أبدا إلى الوراء، إنها تواصل سيرها إلى الأمام، لكنه سير بطئ لا يرضى على الإطلاق هذا الظمأ عند الإنسان من أجل تحقيق ما ينشده من تغيير، ولهذا فهو يصنع الثورات!

بل إن هذا الطموح إلى واقع أفضل هو دونما شك غريزة فى الإنسان، غريزة مثل غريزة البقاء، هى التى تدفعه دائما لتحقيق المصير الأفضل والغد الأبهى والأجمل، فالأب دائما يتمنى تنشئة أفضل لأبنائه، والإنسان دائم البحث عن مستوى أرفع لمعيشته، ومكان أجمل لإقامته، وبيئة أكثر تطورا لتلبية احتياجاته، ولهذا فهو يعمل وينتج ويبنى ويشيد المصانع ويصنع الأدب، ويصنع الفن.. ويصنع الثورات، التى بها وحدها يضمن التحقيق السريع للواقع الأفضل الذى ينشده!!

كن واقعيا.. وأطلب المستحيل!

فليس معنى النظرة الواقعية هى أن ترضى بـالأمر الواقع وتستكين إليه وتبقى إلى أن تمـوت سـجين أغلالـه وأوحاله، إنما هى نظرة واقعية لاستلهام إيجابيات هذا الواقع وتطويرها وإسقاط سلبياته وتدميرها. إنها أقدام فوق الأرض ويد تمتد لقطف النجوم.. والمستحيل ليس دائما مستحيلا فقط عليك أن تتحرك نحوه وأن تمتلك الرغبة القوية لتحقيقـه... وما أسهل أن يكون المستحيل ممكنا عندما نريـد بقـوة أن نجعله كذلك!!

والثورة هى ليست سوى تفجير لتلك الطاقة الهائلـة التى تكمن فى أنفسنا، تفجير لتلك الإمكانية الدفينة فى قلـب الإنسان. تلك التى تصهر الحديد، وتذيب الصخر وتزحـزح الجبال عن أماكنها ! فلقد أودع ا فى الإنسان سره وارتضاه خليفة له فوق الأرض، والثورة تفجير لهذه الإمكانية الهائلـة التى أودعها ا قلب الإنسان، لكى يكون كفؤاً لحمل الرسالة التى أعده لها. ولكى ينطلق بعد ذلك يحقق الإبداع والابتكار ويصنع الأحداث والتاريخ... ويشيد الحضارة!!.

كن واقعيا فاطلب المستحيل!

إنك بعيدا عن أرض الواقع لن تحقق شيئاً، فـالثورة ليست إنجازاً فضائياً، وليست حدثا فوق كوكب الزهرة، إنها إنجاز فوق الأرض، لذلك فإن أهم شروطها الارتباط بأرض الواقع، وفهم هذا الواقع، والانطلاق به إلى تلك الآفاق البعيدة التى لا يصل إليها سوى الأمل والحلم والخيال !

إن هذا التعبير صرخة فى وجه كل تلك الأصـوات التى تخاف الجديد، وترهب الإبداع وتسـتكين إلـى الدعـة والهدوء والتسليم بالأمر الواقع والتى تقول " كـن واقعيـا لا تجنح إلى الخيال فالواقعية لـديهم هـى أن تـودع آمالـك وأحلامك وتصادر خيالك وتغرس رأسك فى رمال الواقـع، بدلا من أن تقول " كن واقعيا واجنح إلى الخيال ".. اذهـب بخيالك وأنت حر إلى أقصى الآفاق والأبعاد، وخض بعد ذلك رحلة العمل والعطاء والبناء والمعاناة لكى تجعل هذا الخيال ... واقعا!!

كن واقعيا.. ولا ترضى بغير المستحيل !!

الرجل الذى بكى عندما رآنى أبكى حين يجب أن أضحك

فجأة جاء هذا الخاطر يقتحم علـى تفكيـرى، كـان خاطرا مضحكاً وسخيفا، كما بدا للوهلة الأولى، لا أدرى إن كنت ساعتها أجلس إلى بعض الأصدقاء، أثرثر فى السياسة، أو أننى أقرأ الصفحة الأولى فى إحدى الجرائد الصباحية، أو أننى أستمع من المذياع إلى شريط الأنباء، فجأة جـاء هـذا الخاطر يتسلل إلى مجلسى ويقتحم على تفكيرى، ظننته فـى البدء مجرد خاطر عابر يأتى إلى الذهن بمثل ما يأتى ألـف خاطر، كلما جاء ذكر السياسة، لكنه ما لبث أن تحول إلـى فكرة ملحة تسيطر على ذهني، وتلاحقنى أينما ذهبت وتفسـد على متعة الحديث والقراءة والاستماع إلى الإذاعات، لأمـر ما تصورت أن جدا من أجدادى، شيخا وقـورا مهيبـا مـن أولئك الأسلاف القدامى، لعله أطول أهـل عشـيرته قامـة، وأكثرهم هيبة ونبلا وشهامة وكرماً وبرا بأبنائه، تصورت أن هذا الجد الكريم النبيل، الطويل القامة، الجميل المحيا، يحس الآن بحرج عظيم من أجلى، وأننى لأمر ما أسبب له ضـيقاً شديداً هذه اللحظة، وأنه يجلس الآن وقد اعتصر قلبه السمح،

الهم والكآبة مفكرا بأمري. كان واضحا أننى خذلته من حيث لا يدرى وأننى ارتكبت فى حقه إثمـا عظيمـا مـلأ حلقـه بالمرارة، بل تصورته وهو يتمشى بأحد منتزهات السـماء، فيدارى وجهه عن الناس خجلاً من سيرتى، شيء مـا فـى سلوكى أو تصرفاتى، أو حديثى، أو كتاباتى، سبب لـه أذى بالغاً وأصابه بضيق وحرج شديدين، تمثلـت أمـامى تلـك اللحظة كل السخافات التى تمـلأ حيـاتى، كـل الأكاذيـب الصغيرة التى يحيا عليها المجتمع من حولى والتى نقولها فى المجالس ونقرأها فى الصحف ونسمعها من الإذاعات، والتى جاء هذا الجد الكريم ليجعلنى وحدى مسؤولاً عنها ويحملنـى وحدى إثم ارتكابها ويستاء بسببها من أجلى، تمثل أمامى فى تلك اللحظة كل ما فى حياتى من فشل وخيبة وعجـز كـل الممارسات الصغيرة الخاطئة التى لم أكن أظن أن ضـررها يمتد إلى أحد غيرى، حتى جاءت هذه الفكرة تعذبنى وتـذكر لى أن شيخا قديما يجلس الآن مهموما كئيبا من أجلـى وأن الضرر قد امتد له برغم الأحقاب الزمنية التى تفصل بيننا، لا شك أن ما أغاظه هو أننى لم أكن شـهما ونبـيلا وصـادقا وشجاعا بمثل ما كان، أو لعل ما أغاظه حقا هو أننى لم أكن

طويل القامة بمثل طوله. ويأسف ويتأسى ويـدارى وجهـه خجلاً لأننى أقصر قامة مما أرادنـى أو أكـون. ويجعلنـى مسؤولا وحدى ولا أحد غيرى عما أصاب قامتى من ضـآلة وقصر، لعل ما سبب له كل هذا الضيق هو هذه المسـافات التى يراها مضروبة بين أبنائه الذين نسوا علاقة الدم فتفرقوا وابتعدوا وأقاموا الأسوار وأنشئوا مخـافر الحـدود، وأنـه يحملنى أنا مسؤولية ما حدث، لعله أستاء لأنه رآنـى أبكـى حين يجب أن أضحك سخرية وهـزءا، وأضـحك سـخرية وهزءا حين يجب أن أبكى، ورأى فى ذلك ابتذالا ورخصـا لا يليق بمن يمتد إليه بصلة النسب.

وأحسست حقا وصدقا أننى ارتكبت إثما عظيما فـى حق هذا الشيخ، وأننى لم أقدم له فى يوم من الأيـام واجـب الوفاء، ولم أبر له بوعد، وأنه من حقه على أن ينكرنـى أو يلعننى أو يتنصل من نسبى ويتبرأ منى، فقد كان بإمكانى أن أجعل قامتى أكثر طولا، لكننى أنا الذى أصر على أن أحتفظ بهذه القامة الضئيلة القصيرة، وأننى قد ذهبت شخصياً إلـى مذيع الأخبار ووضعت فى فمه حفنة من الأكاذيب لينشـرها بين الناس، وأنا الذى قمت بدس عدد آخر منها بين صفحات

جرائد الصباح، وأنا شخصياً الذى تسلل إلى إحدى الخـزائن وسرق خريطة الوطن وقسمها إلى مربعات ومثلثـات رسـم فوقها الحدود ومراكز الخفر، وإن من حقه اليوم أن يلعننى أو يتبرأ منى وينسى أن له نسبا فى الدنيا، لو فعل ذلك لانتهـت المشكلة ولأرتاح هو هناك وارتحت أنا أيضا. ولكننى أعرف أنه لن يفعل، وأنه ما زال يظن بى خيراً، ولم يفقد الأمل فى أننى سوف أكون أكثر وفاء له، فأعيد صياغة حياتى وأمحو عار الفرقة من فوق خريطة وطنى، وأذهب ذات يوم لأصلح من قامتي... حتى توازى فى طولها قامة ذلك الجد العظيم !!

قبل صدور التوصيات

لعل أهم ما فى المـؤتمرات، والنـدوات الموسـعة، واللقاءات الفكرية والأدبية، هى تلك التوصيات التى تصـدر عنها !

وغالباً ما تتم صياغة هذه التوصيات بعنايـة فائقـة، واختيار دقيق للألفاظ والعبارات، ومقدرة على التوفيق بـين وجهات النظر المتضاربة، وصب الأفكار والآراء فى شـكل متحد متجانس مليئة تركيزاً وتكثيفاً وتلخيصاً لأهم ما طـرح

فى المؤتمر من قضايا، لتضع بذلك نهاية سعيدة لكل ما مـلأ المؤتمر أو الندوة أو اللقاء من معارك وزوابع وخلافات.

وسأحاول هنا رسم صورة لمثل هذا المـؤتمر قبـل صدور التوصيات ... لقد بدأ المؤتمر الآن.

وهو عادة يبدأ قبل انعقاد الجلسة الأولى، فقد دارست وراء الكواليس المناقشات، ودست الـرؤوس بعضـها فـى بعض، وتم الآن الاتفاق على من سيكون الـرئيس. واتخـذ الناس الآن أماكنهم، وتطلع كل واحد منهم يتفرس فى وجوه الآخرين، ونظر أحدهم إلى الصف المقابل وحدد الآن خصما اسوف يركز عليه الهجوم، قال فى نفسه يخاطـب الرجـل الآخر (هذا المنافق المتملق الأفاق سأجعل منه فريسة لى) وكان الآخر أيضاً ينظر إلى الصف المقابل، وعندما ألتقـى بصره بالخصم ابتسم له محييا، وقال فى نفسه رداً عليه (لا أدرى كيف يدعون إلى المؤتمر مارقا منحرفا مثل هذا السيد الذى أفسدته كتب كارل ماركس.. لكن لا يهم سأعرف كيف أقصم ظهره !).

وبدأ أمطار الكلمات تهطل هنا يجلس رجل متـأنق، وجيه اختار مكانا مرموقا فى الصدارة فهو يعرف أن عبئـاً

كبيراً فى هذا المؤتمر سوف يقع على كاهلـه، وفـى حـين انصرف الآخرون يرتبون أفكارهم ويستحضرون ما كانوا قد قالوه فى مؤتمرات سابقة لكى يعيدونه اليوم، كان هو وحـده الذى ليس فى ذهنه أفكار يرتبها، فالكلمات دائماً جاهزة على شفتيه ولهذا فهو فى كل المؤتمرات أول من يستهل النقـاش. وضع مكبر الصوت أمامه واطمأن إلى المساحة التى تفصله عنه، وتنحنح لتدليك الحنجرة أولا، ثم التفت شـمالا ويمينـا ورمى أعضاء المؤتمر بنظرة تمتلئ زهوا ورضا وقـد بـدا واثقا من نفسه ومما سيقوله ثم قاله (فى الحقيقـة.) وتـدفق بالحديث ريان سلسا فى نبرة تدرب عليها دونما تعثر أو تلكؤ أو معاناة فى اختيار العبارات أو خطـا فـى الصـرف أو العروض. وكانت الأنظار مشدودة إليه وهو يلقى كلمتـه. لا شك أنه يقول كلاما علميا الآن فهو يحدد كل ما يقـول فـى نقاط: الأولي.. الثانية.. الثالثة.. العشرون.. المائة.

انتهى من إلقاء كلمته التـى تشـهد كـل الأنظـار المشدودة إليها بمدى عمقها وروعتها، وقـد علـت وجهـه علامات الرضا البالغ ملتفتاً شمالاً ويميناً شـاكراً بابتسـامته الطلية للناس إعجابهم. لم تبحث فى كلامه عن شيء تمسكه،

فكرة أو رأى أو إضافة ما لا شيء ... سوى موهبة خارقة في الحديث، وحذلقة فى اللسان لا شبيه لها هى وحدها سلاحه فى أن يكون نجم هذه المؤتمرات، ثم تكتشف بعد دقيقة واحدة أنك كنت مخطئاً. ففى كلامه اللا شيء، كان ثمة شيء بدليل أن زميلا آخر له أكثر منه وجاهة وأناقة ووقاراً، قد طلب الكلمة الآن وتحدث بانفعال مختلفا مع زميله في النقاط الثالثة والعاشرة والخامسة والسبعين متفقاً معه فى بقية النقاط.. وتبحث عما اختلفا فيه، وما اتفقا عليه فلا تجد شيئاً على الإطلاق فهما الآن يمارسان موهبة عظيمة منحها لهما هى (موهبة التعبير عن لا شئ). وفى مكان ما من القاعة كان رجل آخر يرفع يده بإلحاح، وقد ظهرت عليه علامات التأزم والانفعال كأنه لو لم يأخذ الكلمة الآن لسقط مغشياً عليه، ويتنفس الصعداء فقد جاءه الإذن بالكلام ويبدأ حديثه بسرد مقدمه طويلة عن أهمية الموضوع وخطورته والأنظار جميعها اتجهت إليه فى ترقب وتحفز بانتظار ما سيقوله، وإذا به يخلص بعد مقدمته الطويلة إلى المطالبة بإغلاق أحد شبابيك القاعة لأن تياراً عنيفا يتسلل الآن يفسد عليه صحته.

ويبدو أن النقاش صادر ساخنا الآن ... فقد انتهى الجميع من ترتيب أفكارهم واستحضار ما يحفظونه من كلمات، إن خمسين يدا ترتفع الآن فى وقت واحد تطالب بالكلام، والزمام صار يفلت من يد رئيس المؤتمر فإذا بهم جميعاً يتكلمون فى وقت واحد. ورغم أن أحدا لا يسمع كلام الآخر فقد بدل واضحا أنهم جميعا سعداء بالكلام، كان مجرد أن يفتح الواحد منهم فمه ويتكلم يعتبر هدفا بحد ذاته لذلك فإنه لا يهم من يسمع أولا يسمع، المهم إرضاء هذه النزعة الهستيرية للكلام، ولكن واحدا منهم هو لا شك أكثرهم خبرة بهذه المؤتمرات وأقواهم حنجرة ينجح فى أن يجعل صوته يرتفع فوق كل الأصوات... وإذا هو وحده يصول ويجول فى القاعة، ودارت فى رأسه نشوة الانتصار فلا بأس إذن من إرغام الآخرين على سماع بعض من أمجاده وانتصاراته القديمة، فيمضى معددا ما شارك فيه من مؤتمرات عالمية ومن قابلهم من رؤساء وزعماء العالم، ثم تبدأ ورطته فى كيفية ربط كل هذا بالموضوع الذى يدور حوله النقاش.. ولكى لا يهبط من محيطه العالمي. فهو يختتم خطابه قائلا: (

ومن خلاله هذا كله أقول.. إن هذا المؤتمر سيكون علامـة بارزة فى تاريخ المسيرة الإنسانية فى العالم!!

وفى كل مؤتمر تجد ذلك الذى لا ينتهى من كلمة إلا ويرفع يده من جديد طالبا الكلمة. وبالرغم عن أنه ليس لديه ما يقوله على الإطلاق، فإنه دائماً يقـول ليرضـى شـراهة غريبة للكلام.. إن مسئوليته هى تعطيل النقاش داخل المؤتمر بدلا من الإضافة إليه.. وهو وحده الذى يجعل جزئية صغيرة تافهة فى موضوع النقاش تستغرق جلسة كاملة من جلسـات المؤتمر.

وأكثر المناظر تكراراً هو ذلك الذى تهدجت أوداجه ... واحمر وجهه.. وامتلأت عيناه تأثراً وانفعالا وقد جـاء يدافع عن قضية ما، فى حين أنه فى جلسة خاصة معك خلف كواليس المؤتمر كان يسمعك هجوما مراً ضد هـذه الفكـرة التى يدافع عنها الآن.

ويمسك آخر مكبر الصوت.. ها قد جـاءت فرصـة طالما انتظرها للكلام، ولكن الكلمات قد طارت مـن رأسـه الآن... وما كان قد رتبه فى ذهنه من عبارات سوف يبهـر بها أعضاء المؤتمر اختفت فجأة... ولكى لا ينتهـى الأمـر

بفضيحة يمنح نفسه فرصة للتفكير فى حين يلوك لسانه تلـك العبارات المحفوظة (فى الحقيقة أيها الأخوة ... فى واقـع الأمر... ما أريد أن أقوله فى هذا المؤتمر العظيم هو أن ...) لكنه لم يعثر على الكلمات.. ويعاود الكرة من جديد (فـى الواقع ... والحقيقة ... ما أريد أن ... إلخ) لكن الكلمات لا تأتى. ويلتفت شمالا ويمينا باحثا عن إنقاذ يأتيه من جهة ما.. لكن لا جدوى. الموقف يزداد تأزما... وقد بدا وكان المؤتمر كله يتآمر ضده... كله صمت وعيون تحاصره من كل جانب والعرق صار يتفصد من جبينه ويسيل أنهارا من النار فـوق ظهره.. ما العمل يا إلهى.. وكبت فى نفسه رغبة شديدة فى البكاء... ولعن تلك اللحظة التى طلب فيها الكلمة.. وقبل أن يسقط منهاراً يلهمه ا إلى كلمات أخرى ينهى بها الموقـف، صار يقولها متهدجاً لاهثاً:

إن أبنـاء الأمـة العربيـة جمعـاء... والشـعوب المقهورة.. فى آسيا ... وإفريقيا... وأمريكـا اللاتينيـة ... والجماهيرية التى تناضل القهر فى روسيا والولايات المتحدة وفرنسا.. والصين وبريطانيا.. وفرمـوزا ... ومونـاكو...

وهونولولو ... تشرئب الآن بأعناقها إليكم وتنتظر نتائج هذا المؤتمر)!

ويطلق (آهة) عميقة كأنه انتهى لتوه من مطاردة كاد يذهب فيها فريسة لكل ما فى غابات العالم من أسود... سعيداً بأن ا ألهمه لقول تلك الحكمة... معجبا بما اهتدى إليه من كلمات خاصة (تشرئب).. هذه التى هبطـت عليـه كأنهـا الوحي!

وبرغم ذلك كله تبقى هذه المـؤتمرات والمنتـديات واللقاءات ضرورة لا غنى عنها للحياة الفكرية فى أى مجتمع من مجتمعات الدنيا... من خلالها تتضـح الرؤيـة وتلتقـى وجهات النظر، وبها وحدها تنضج الأفكار والآراء وتصـل إلى صيغتها المثلى.

إنهم يفتحون لك ملفاً

لا بد أن زميلك فى المكتب عندما بدأت العمل كـان موظفا أقدم درجة وأكبر سنا وأكثر حنكة وتجربة، وأن أول نصيحة وجهها إليك عندما رآك تتخلف قلـيلا عـن موعـد الحضور هي:

احذر بنى ... فهل يسرك أن يمتلئ ملفـك برسـائل الإنذار؟!

وعندما كنت تأخذ ورقة الإجازة المرضية كان يقول لك:

ألا تعرف أنه شيء مضر بمستقبلك أن يمتلئ ملفـك بأوراق الإجازات المرضية!!

ولسبب من الأسباب التافهة جـاءت رسـالة شـكر دورية لمجموعة العمل الميدانى التى كنت تذهب أحيانا معها، فكانت فرحته لك شيئاً أكبر من كل وصف.

اذهب فورا وأحضر المشروب للجماعة، ألا تعلم أن رسالة شكر قد جاءت، ووضعتها لك بنفسى فى ملف الخدمة لكى تبقى هناك إلى الأبد؟!

ولا بد أنك كنت تستغرب لهذه اللهجة المليئة إجـلالا واحتراما التى يتحدث بها عن الملف وهذه الخطـورة التـى يضفيها عليه، فأنت لم تكن تعرف بعد مـدى أهميـة هـذه الملفات فى حياة الإنسان، أما هو فقدى اكتوى بنارها وأدرك مع مضى الدهر قيمتها وجرب جبروتها وسطوتها. ولا شك أن مداركك أنت أيضاً بدأت تتفتح من يومهـا علـى شـيء

اسمه(الملف) ولا شك أن فرحتك كانـت عظيمـة وأنـت تكتشف أن هذا ليس هو الملف الوحيد فى حياتك، فإن ملفـا آخر قد فتحوه لك الآن بجهاز الخدمة المدنية، وإن لـك فـى مدرسة القرية ملفا وفى مدرسة أخرى انتقلت إليهـا عنـدما كنت صغيراً ملفا آخر.. وفى معهد آخر ذهبت إليـه عنـدما كبرت ملفا وأخر فى محفوظات التربية والتعليم وآخر بإحدى الشركات التى عملت بها أثناء الصيف، ولعلك كنت طرفا فى خصومة وصلت إلى مركز الشرطة بحيث صار لـك ملـف هناك، ولعلك اشتركت فى مظاهرة ضد القواعد ففتحوا لـك فى مكان آخر ملفا آخر... وكانت تستهويك الكـرة فقـدمت اشتراكا إلى أحد الأندية لكى يضعوا لك ملفا، وأن مدرسـة ليلية لتعليم اللغات ذهبت إليها فصار لك ملف كتـب فوقـه اسمك بلغة أجنبية، وتعلقت بأهداب الأمل فى سيارة تشتريها ذات يوم فتعلمت قيادة السيارات وصارت لك رخصة وملفات لدى المرور والمواصلات ومدرسة القيادة، وأن طبيب أسنان ترددت عليه عندما أعيت أسنانك (السوسة) ففتح لـك هـو أيضاً ملفا، ومستشفى نمت لديه ليلة واحدة فاحتفظوا لك فيـه بملف. وبدا لك الأمر كأنه المعجزة فها أنت تكتشف أن فـى

حياتك كل هذا اعدد الهائل من الملفات وأنت بعد لم تمـض أسبوعك الثانى فى الحياة العملية. وظننت لأول وهلة أن كل هذا دليل الأهمية الكبرى، وأن سلوكك يجب أن يتحسن قليلا بحيث يتناسب مع سلوك رجل له عشرون ملفا فى عشـرين مكانا مختلفاً وبدأت تسترجع فى ذهنك حكايات أخرى عـن هذه الملفات فهى لا تنتهى بانتهاء رحلـة العمـر بـدليل أن خطيب الجمعة كثيراً ما تحدث عن ملائكة يسجلون الحسنات وآخرين يسجلون السيئات ويحتفظون لكل إنسان بملف يضم حسناته وسيئاته ليكون وثيقة له أو عليـه يـوم الحسـاب.. وبدأت تدرك أن الأمر أكثر خطورة مما ظننته أول مرة.

وبرغم كل شيء فقد كان الأمر بالنسبة لـك مسـليا وممتعاً فلا شك أنه شيء جميل أن ترى الآخرين يهتمون بك كل هذا الاهتمام ويتفننون فى رسم اسـمك علـى الغـلاف ويشغلون أنفسهم بحفظ أوراق تتعلق بك وترقيمها وتسـجيلها وتبويبها، فأنت لم تكن بعد قد اكتشـفت أن حياتـك سـوف تصبح ركاما من الملفات المتناثرة هنا وهناك، وعندما امتدت بك رحلة العمر وخبرت مجالات الحياة المختلفة وتنقلت فـى مواقع العمل والإنتاج وسافرت وعالجت وعانيت مسؤوليات

البيت والزواج والأولاد وتعاملات مع شركات أو محـاكم أو مؤسسات ورأيت الملفات تنبت تحت قدميها كنبـيء تنبـت تحت قدميه الأعشاب ومع كل خطوة تخطوها فـى الحيـاة يتفتح كالزهرة ملف جديد، عندها فقط أيقنت بمدى خطـورة اللعبة وبدأت تأخذ الأمر مأخذا جديا ولـيس مجـرد ترفـه وتسلية وإن اختراع هذا النظام لم يكن عبثاً وإنما لحكمة من ورائه، فلقد عرفت الآن أن لهذا الملف نفوذا على حياتـك لا يعادله أى نفوذ، وأنه يحصـى عليـك أنفاسـك وحركاتـك وتصرفاتك ويحاصرك أينما ذهبت، إن حياتك ليست سـوى حصار تضربه من حولك الملفات فى كل مكـان، وإن هـذه الملفات تمد نفوذها وسلطانها على المستقبل بحيث لا تتـرك لك مجالا للاختيار فهى التى حددت لك خط السير ولعل أكثر جوانبها رعبا أنها مثل آلاف العدسات السرية التـى تتبعـك أينما ذهبت، تراك وتحصى عليك أنفاسك دون أن تراهـا أو تعرفها، فهم دائما يحيطونها بسـرية وقدسـية لا تسـتحقهما ويمنعون عنك رؤية أو معرفة ما فيها بالرغم مـن أن كـل قصاصة من الورق أو سطر من السـطور تضـمها هـذه الملفات إنما يخصك أنت وحدك ولا يخص أحدا غيرك، ولا

شك أنك سوف تزداد رعبا إذا ما شهدت على البعد أحد هذه الملفات فهو لا بد أن يكون منفوخا بالورق ومكتنـزا حتـى لتندهش ما الذى فعلته فى حياتك بحيث يحفظون لك ملفا بهذه الضخامة وهذا الحجم. ولعل أحد جوانب الرعـب الأخـرى عندما يأتى صوت يهمس فى أذنك قائلا أن جهة ما لا تعرفها ولا تربطك بها صلة، قد احتفظت لك بملف هو الآخر لا بـد وأنه ضخم ومكتنز ويزن قنطارا من الورق وتعجب من سر اهتمام تلك الجهة بك وأنت لا تعرف علاقة تربط بهـا، ولا تدرى ماذا تفعل، هل تبكى أم تضحك؟؟ أفعل ما شئت فـإن السر سوف يبقى يعذبك حتى تذهب إلـى القبـر! ويتحـول (الملف) إلى شيء أشبه بالكابوس الذى يرافقك ليلا ونهاراً.. يمارس ضدك قهرا وجبروتا وسلطانا...

فقد تقفل أمامك كل الأبواب بإشارة منه. وقـد تفـتح أمامك كل الأبواب.. بإشارة منه!

ولعل أبشع ما يمارسه الملف هو عندما يحاول بقسوة لا حدود لها أن يسرف جهدك وعرقك ودمك، بل إن هذا هو ما يفعله بالضبط، إذ ما معنى ذلـك الـذى نسـميه حـوافز معنوية، فأنت مطالب عندما تعمل أكثر وتسهر أكثر وتتطوع

بساعات العمل الليلى وتسفك دم القلب فى سـاحات العمـل المتواصل الدؤوب، مطالب بألا تسأل مقابلا ماديا يذهب إلى جيبك، أو وليمة لعائلتك، أو بيتا لسكناك، أو حلوى لأطفالك، أو سدادا لدينك، أو ثمنا لكتب تشتريها أو تحفة تقتنيها.. وإنما عليك أن ترضى بالحافز المعنوي... وما هو؟ إنـه رسـالة شكر تذهب إلى صاحب العزة (الملف)! !

فحتى ما أخذته بالعرق والدم وسهر الليالي.. يـأتى ذلك الملف اللعين لكى يستولى عليه!!

ومع ذلك تبقى هذه الملفات جزءا من حياتك وأيامك ! إن كل ملف منها يحوى قطعة من عمـرك ضـمتها تلـك الأضابير والقصاصات والأوراق، وأبلغ ما فيها أنها أحاطت بكل جوانب الموضوع، وتناولت كل الوجوه فقد التقت هناك رسالة التأنيب مع رسالة الشكر والتقارير السرية التى كتبهـا رؤساء أعجبوا بك وآخرون لعنوك!

وسبقى سر هذه الملفات يعذبك إلى الأبد...

سر لا سبيل إلى الوصول إليـه وسـيبقى السـؤال كالطين يملأ الحنجرة (ترى ماذا كتبوا عنى فى كـل هـذه الملفات؟)!!.

التعب

إنه تعب لازج ثقيل لا يقدم سلوى ولا عزاء، ولا يأتى بعد سفر طويل أو إنجاز كبير أو جهد عقلى وبدنى، إنه تعب لقيط لا أب له ولا أم ولا طعم له ولا لون، تعب تحس معـه بالخجل والإهانة ويمنحك إحساسـا لا نهايـة لـه بالتفاهـة والعبث.

اخترت يوما جحيمى القيظ وعبرت الصحراء سـيرا على الأقدام..

أو نظرت هازئا إلى قمة جبل شامخ يمتلئ شراسـة ووعورة ورأيت بعد ذلك يديك وذراعيك وقدميك وهى تتسلخ فلا تتوقف حتى وصلت إلى قمته..

أو أغاظك يوما منظر معلمك بأحد الكتاتيب فرميـت فى وجهه صمغ الدواة وجلست إلى فلقتـه حتـى تورمـت قدماك.

وجاء التعب بعد ذلك.. تعبا قاسـيا شـديدا، لكنـه مصحوب بشعور جميل بالهدوء والطمأنينة وسكينة الـنفس، شعور من حقق لتوه إنجازا كبيراً، أو إحسـاس مـن نجـا بمعجزة من كارثة محققة، لقد انتهت الكارثة وستبقى مجـرد

ذكرى تثير الضحك، ولهذا التعب مدة محددة سوف ينتهـى بعدها لا محالة !

ولكن ماذا تفعل مع هذا التعب الآخر، هـذا التعـب الذى يأتيك فجأة دون أن تكون قـد عبـرت الصـحراء، أو صعدت إلى قمة أكثر الجبال شراسة ووعورة، أو دخلت فى تحد مع غرور المعلمين.

تعب مجانى يأتى ويحط فجأة فـوق بـدنك، دون أن تكون قد فعلت شيئاً يبرر هذا التعب، دون أن تكون قد حققت إنجازا أو خضت معركة أو ذهبت فى سفر أو أنهكت نفسـك فى جهد عضلى أو عقلى جاءت بكل هذا التعب والاعياء.

كأن صخورا ثقيلة، خشنة، لها منظـر كريـه قـد ربطوها إلى ظهرت، أو عربة نفقت من جرها خيول عشرة فجاءوا بك لتجرها أنت وحدك، وتبحث عـن تفسـير لهـذا الوهن الذى يعتريك، هذا الإحساس بالإعياء والتعـب الـذى يشل مفاصلك، هذه الأرصفة التى تحولت جميعها إلى كثبان من الرمل تنغرس فيها قدماك كلما حاولت أن تمشى، وتبحث عن سبب لكل هذا الإعياء فلا تجد، فأنـت لا تـذكر جهـداً عضليا بذلته جاءت بهذا الإعياء، قد تكون صحوت للتو مـن

نوم هادئ طويل، ومع ذلك فإن ثقة العربة فى ذراعيك وثقل الصخر فوق كتفك ورمال الرصيف تحت قدميك ما زالت كما هى، وتبحث عن سر لهذا التعب فى مظاهر الحياة من حولك لعل متاعب فى العمل أو البيت أو مع الأصدقاء هى السبب فلا تجد، وتفشل فى النهاية فى العثور على سبب مباشر لكل هذا التعب، وتقول فى نفسك لعله تعب الراحة ذلك الذى يصيب الملوك أو أبناء الأغنياء الذين لا يعملون، ولكنك تعرف جيداً أنه لا أثر للدم الأزرق فى عروقك، وأنك لم تكتشف منجماً ولم تولد وفى فمك ملاعق الذهب، فأنت كغيرك من عباد ا تؤدى عملا فى سبيل الحصول على رزقك. إذا من أين يأتى هذا التعب؟.. وتفشل فى وجود تفسير له، ويزيدك هذا تعبا، فهو أكثر أنواع التعب تفاهة وتعاسة ومجانية وقبحا، إنه تعب لزج ثقيل لا يقدم سلوى ولا عزاء، ولا يأتى بعد سفر طويل أو إنجاز كبير أو جهد عقلى وبدنى، إنه تعب لقيط لا أب له ولا أم، ولا طعم له ولا لون، تعب تحس معه بالخجل والإهانة، إنه يمس شيئاً فى كبريائك الإنسان نفسه، ويمنحك إحساسا لا نهاية له بالتفاهة والعبث، إن شيئاً ما يغيب من حياتك هو الذى ولد فى نفسك هذا

الإعياء وهذا التعب، ولكنك لا تعثر عليه ولا تعرف له شكلا أو ملامح، إننا نعالج الجهل بالعلم والمعرفة، ونعالج المرض بخلق بيئة صحية، ونعالج الفقر بوسائل الإنتاج والعمل، ولكن هذا التعب.. كيف علاجه، إنه لا يأتى نتيجة العمـل حتـى تكون الراحة علاجا له، ولكن لا يتحول الأمر إلـى كارثـة تدمر حياتك، فأنت تذهب إلى الفلسفات القديمة والحديثة بحثاً عن تفسير، وتذهب إلى الأساطير وميثولوجيا الشعوب تبحث عن عزاء، ولعلك ترى صورة واضحة لك فى سيزيف الذى حكمت عليه الآلهة بأن يعيش حياة أبدية يحمل حجراً إلى قمة الجبل وما أن يصل حتى يدحرج الحجر إلى السفح ليعود من جديد يتسلق الجبل ويحمل فوق ظهره الحجر فى رحلة أبدية عبثية لا تنتهى، ولكن إيماننا عميقاً بالحياة سوف يتغلب على هذا التعب فى نفسك، ويجعلك تطرد هذه الصورة القاتمة من ذهنك، فأنت تعلم أن الحياة أسمى من أن تكون بهـذا العقـم واللا جدوى، وما هى إلا لحظة تعب طارئ لا طعم لـه ولا لون.. سوف تتبخر بعد حين فى الفضاء الشاسع اللانهائي.

السحب التى تمر هناك

رفعت بصرى إلى أعلى فأدهشنى أن أرى سماء كبيرة شاسعة تعبرها قوافل السحب البيضاء، غمرت قلبى البهجة وأحسست بفرحة كأنها فرحة الأطفال، كأننى أكتشف السماء لأول مرة، تذكرت أننى منذ زمن طويل مضى لم أرفع بصرى إلى السماء، وأننى أكاد أنسى أن هناك فوق رؤوسنا أصلا سماء، يمضى الواحد منا مع طاحونة الحياة اليومية، يدور مع دورتها، وينشغل بهمومها ومشاغلها، وتستغرقه أشياؤها الصغيرة حتى تنسيه الكون من حوله، يدفن وجهه فى مكتبه وأوراقه أو أدوات الحرفة التى يشغلها، ويأتى الليل فيدفن وجهه فى المخدة أو تحت الأغطية يستجدى الراحة، يدفن وجهه فى الأرض وهو يعبر الطريق، أو يدفن وجهه فى السيارات التى تمرق من أمامه مخافة أن يموت تحت عجلاتها، يدفن وجهه فى أوجه الناس الذين يمرون من حوله كأنه خائف أن يستل أحدهم سكينا يطعنه به فجأة، يدفن وجهه فى إشارات المرور ينتظر الإذن من ضوئها، يدفن أنفه وعينيه فى الكتاب أو الصحيفة، وإذا تعب فيدفن أذنيه فى المذياع، وأحيانا يدفن أنفه وعينيه وأذنيه فى

جهاز الإذاعة المرئية، وإذا بحث عن تغيير فهو يذهب إلـى دار العرض السينمائى ويدفن وجهه فى الصور المتحركـة، يدفن وجهه فى وجه الإنسان الآخر الذى يلتقى به فى العمل، أو المقهى، أو السوق، أو الطريق، أو البيت، وإذا كان أسعد حظاً فهو يدفن وجهه فى وجه امرأة يطلب حبها، وهو لا بد أن يدفن وجهه ثلاث مرات كل يوم فى صحن الطعـام، ولا بد أن يدفن وجهه فى حوض الماء يغسل وجهه، ولا بـد أن يدفن وجهه فى المرأة يحلق ذقنه أو يطمئن إلى مظهره، وهو يدفن وجهه كل يوم عشرات المرات فى واجهـات المتـاجر ويحلم باقتناء الحوائج الثمينة المعروضة بـداخلها، ويـدفن وجهه فى ميزان البقالين والباعة المتجولين مخافة أن يخدعوه فى الكيل، ويدفن وجهه عشرات المرات فى محفظة النقـود، ويستخرج أوراق العملة ويدفن وجهه فيها هى أيضا ويكتئب لأنه لا يملك أكثر مهما كان حجم ما يملك الآن، ويدفن وجهه فى فواتير الحساب والإيصالات وصكوك الدين، يدفن وجهه فى فناجين القوة ومنافض السجائر وملاعق الشاى وينسـى الواحد منا – لجهله وغفلته- أن ينظر إلى السحب، السـحب التى تمر هناك، السحب الرائعة !

ينسى الواحد منا – وهو يمضى منهمكا فى دوامة الحياة أن حدود العالم هى أكثر رحابة واتساعا من عالمه اليومى الصغير المحدود، وأن من حوله كونا شاسعا بلا نهاية وأن هناك سماء كبيرة زرقاء تقع تماما فوق رأسه، وأن هناك مشاهد بديعة تصنعها الشمس لحظة الشروق ولحظة الغروب، وأن هناك نجوما لا تحصى تبزغ كل ليلة فى السماء، وأن فى الدنيا أشياء أكثر جلالا وجمالا وشموخا وسموا من كل تلك الهموم والمشاغل الصغيرة، وأن نهاية الكون لا تقع عند نهاية الطريق بين البيت والعمل، وأن سقف بيته ليس هو تماما سقف العالم، وأن الإنسان لا يكون إنسانا إلا إذا احتوى كل هذا الكون بجلاله وشموخه وسموه، وجعل صلته وثيقة بهذا الجمال والجلال والشموخ الذى يعمر به العالم، وأنه إذا تخلى عن ذلك للحظة واحدة فهو بذلك يتخلى عن شيء أصيل وجوهرى فى طبيعته كإنسان، وأنه وهو يدفن وجهه فى الأرض ويدور مع طاحونة الحياة اليومية، عليه ألا ينسى أن يتوقف لحظة ويرفع بصره إلى أعلى لكى يرى السماء، ويبتهج قليلاً برؤية السحب.. السحب التى تمر هناك.. السحب الرائعة !

جزر يغمرها الماء

تلك الجزر التى يغمرها الآن الماء!

تلك الجزر التى كان يملأها وتضج بالحياة، ثم جـاء الزمن هادرا يغمرها بمياهه لتغوص فى القاع إلى الأبد !!

تلك التى غنت فى حدائقها عصافير الطفولة ونحـن ننظر باندهاش إلى الحياة وصهلت فوق أرضها جياد الصـبا ونحن نظن أن العالم ملك لنا. ثم جاء الزمن غير عابئ بنـا ليغمرها بلا وتختفى عن أبصارنا إلى الأبد...

تلك الجزر التى يغمرها الآن الماء... ما السر فـى هذا الحنين الجارف الذى يشدنا دوما إليها !!

ما حاولت أن أجلس يوما إلى نفسـى إلا ووجـدتها تطفو من جديد فوق ذاكرتى، ما وجدت نفسى أجلس للكتابـة إلا وخيوط خفيفة تشدنى إلى ذلك العالم القديم الذى اختفى فى الظلام... وإلى تلك الجزر التى يغمرها الماء!!

إنها غالباً ما تأخذ حيزاً كبيراً من تفكيرنا بـل هـى مهربنا عند الضيق والتعب من رحلتنا الحاضرة، إنها المدن التى نسافر إليها بحثا عن الدفء والعزاء، نسافر ونحن على يقين كامل بأنها كانت ذات يوم هناك وأن مـا جـرى مـن

أحداث لم يكن خيالا وإنما كان حقيقة، لعلها حقيقـة وحيـدة التى نحن على ثقة كاملة بأنها حقيقة ١

ففى حين يبدو الحاضر فصولا غير متكاملة نعيشـها ونحياها ونمضى فى تيار الحياة ومعها وقد استغرقنا متاعب الحياة اليومية وهمومها، مترقبين متوجسين مستسلمين للـذى يأتى، غير قادرين بحكم وجودنا على قلب الصورة، على أن نحيط بكل الجوانب لهذه الصورة !!

وفى حين يظل المستقبل دائما أرضـاً مجهولـة لا مجال لمعرفة أسراره سوى تكهناً وأمـلاً وأمنيـة ... فـإن صورة الماضى تبقى وحدها الصورة الحقيقية الواضحة التى نلجأ إليها بأبصارنا ونحن على يقـين مـن كـل تفاصـيلها وخطوطها وألوانها. ولا شك أننا الآن ونحـن خـارج تلـك الصورة أكثر قدرة على تأملها ومعرفة أسرارها، فمـا كنـا نراه ونحن بقلبها ألغازا أو طلاسم لم يعد ألغـازا بعـد الآن، إننا نقرؤها الآن كما نقرأ صفحة من كتاب القراءة فالمشـاهد كلها كاملة أمام أعيننا، ولعل هذا هو ما يمنح أيـام الطفولـة والصبا هذا السر الذى يأسرنا إليها ويجعلنا ننسى فى تذكرها حتى مباهج أيامنا الحاضرة!

يشدنا الحنين إلى تلك الجزر التى يغمرها الماء، إلى تلك الأيام التى مضت ولن تعود، وفى ظننا دائمـا أن شـيئاً عظيماً قد توارى معها، شيئاً رائعاً ونبيلا قد ذهب مع تلـك الأيام، وتبدو لحظتنا الآن دائما ضئيلة وتافهـة بجـوار مـا تحمله تلك الأيام من نبل وشموخ، إننـا غالبـا مـا نخفـى استهتارا وضيقا غريبا باللحظـة التـى نعيشـها الآن، ولا نستطيع أن نقدر تقديراً عظيماً ما تحفـل بـه مـن أحـداث وجوانب، أو نكتشف ما بها من تألق وإشعاع، حتى إذا مـا صارت هذه اللحظة ماضيا بعيداً. وجاء الزمن يغمرها بالماء ويتوارى بها عن أنظارنا وتغيب هناك إلى الأبد، عندها فقط نكتشف ما كانت تنطوى عليها لحظتنا تلك من نبل وشموخ.

وهكذا فإننا دائما أسرى هذا الحنين الجارف إلى تلك الجزر التى اختفت فى الظلام، غير قادرين على أن نقـاوم هذا الضعف نحو أتفه الجوانب التى تحفل بها، ونحمل لكـل ما حوته احتراماً وتقديراً، ونرى فى كل لحظاتها شيئاً نبـيلاً وعظيماً ضاع من حياتنا وانتهى !

ولعل هذا هو السر الذى جعلك من تلك الجزر التـى طواها تيار الزمن، المنجم العظيم الذى استلهم منه الكتـاب

والفنانون إبداعهم وفنهم، فأعظم الآثار الفنية والأدبيـة هـى التى استلهمها كتابها ومبدعوها من مراحل العمر المبكـرة، من ذكريات الطفولة والصبا. واقع قديم ذهب وتوارى عـن الأنظار فجاء الكاتب يعيده للحياة من جديد، ويعيد ذلك الواقع القديم حيا فوق الورق، يفرغ عنه الماء، وينفخ بأنفاسه رماد الليل الذى يغطيه، ويبعث فيه حياة جديدة!!

وكلنا نعرف أن أبدع ما كتبه الشاعر العربـى كـان ذلك الذى يستلهم فيه ذكريات قديمة وأن لهذا الشاعر ضـعفاً لا يقاوم أمام " الأطلال" التى يقف عندها ويستهل شعره بها، ويعيد إلينا تجربة جديدة حية من واقع ذلك الحطام الذى عاش فيه ذكريات لا تنسى !!

تلك الجزر التى يغمرها الآن الماء...

تلك الجزر التى غنت فى حدائقها عصافير الطفولة، وصهلت فوق أرضها جياد الصبا... ثم جاء الـزمن غيـر عابئ بنا ليغمرها بالماء وتختفى عن أبصارنا إلى الأبد...

تلك الجزر التى يغمرها الماء... من منـا لا يبيـع عمره كاملا فى سبيل أن يعود يوما واحدا إليها !!

الناحية الأخرى !

لعله الكبرياء، لعله الغرور الإنسان لعله الوهم بأننـا أقوياء، لعل ذلك كله هو الذى يجعل جميع البشر أطرافاً فـى مؤامرة التواطؤ على هذا العيب الذى ميز سلوكنا البشـري، وجعلنا إلى مدى الدهر نسكت عليه وننكره حتى أمام أنفسنا، ونمتنع عن الاعتراف بعدد المرات التى كان علينا فيها، كل يوم، أن نلتفت بوجوهنا إلى الناحية الأخرى متظاهرين بأننا لا نرى شيئاً!

فمع كل خطوة يخطوها الإنسان منا فوق الأرض ثمة مظهر من مظاهر الحياة، أو شيء فى سلوك الناس القريبين منا، أو فى حركة المجتمع من حولنا ينادى الواحد منا قـائلا (أدر وجهك نحوي) لكنه لا يفعل، إنه يتظاهر بأنه لا يـراه، ولا يسمع نداءه، إن وجهه قد أداره إلى الناحيـة الأخـرى، ليوهم نفسه بأنه حقا لا يرى شيئاً!

فى كل دقيقة ثمة شيء مخجلا ومعيب يقول لك أنـا هنا ويطلب منك أن تراه، قد يكون هذا الشيء " عيبا" بدا فى سلوك الناس الذين حولك، الأهل والأصدقاء وزملاء العمل، لكنك لكى لا تفقدهم فإن عليك دائما أن تـدير وجهـك إلـى الناحية الأخرى عندما ترى تصرفا لا يعجبـك أو مظهـراً

سلوكيا لا ترضى عنه، فأنت لا تستطيع أن تحيا معزولا عن أهلك وأصدقائك وزملائك، إذ أن ذلك بالضبط مـا سـوف يحدث لو أنك كنت ساذجا ومغفلا إلى الحد الـذى صـرت ترصد معه كل خطأ يرتكبونه أو هفوة تصدر عنهم.

وهو أحيانا " عيب بدا فى سلوكك أنت نفسك وتعرف أن لا برء لك منه فتقرر أن تلتفت عنه إلى الناحية الأخـرى وتمتنع عن رؤيته والاستماع إلى ندائه لكى لا تفسـد بـذلك حياتك وتشل قدرتك على الحركة والحياة، فتمضى تتعـايش معه وتتآلف بصحبته وتغض الطرف عنه إلى الأبد، والويـل لذلك الصديق الذى يحاول يوماً أن ينظر نحوه ويلتفت إليـه ويصارحك به فلسوف تعتبره أفاقا خدعت فيه كل هذه المـدة حتى جاء يرميك زورا وبهتانا بما ليس فيك وأنه صادر منذ الآن عدوك الأوحد.

وهو أحيانا خطأ رأيت أناسا من حولك يرتكبونه فى عز الظهر، لكنك درءا لأى مخاطرة لا تحمد عقباك فأنت لا تراه وتقرر على الفور أنك لم تر شيئاً ولا تعرف شـيئا وأن ما سمعته من نداء كان مجرد أضغاث أحلام.

وأكثر ما يراه الإنسان هو تلك العيوب فـى نظـام المجتمع الذى يحيا فيه، ولو التفت إلى كل ما يرى وقرر ألا يترك شيئاً لا يغمض عنه عينيه، فإنه سوف يحيا مدى العمر معزولا عن المجتمع الذى يعتبر مثل هذا الإنسان أبنا عاقـا من أبنائه لا بد أن ينكره وينزل به أقسى أنواع العقاب.

إن مظاهر الحياة مليئة بما يصـطدم مباشـرة مـع معتقداتنا وتقاليدنا ويثبت خطأ ما عشنا مقتنعين بصحته طوال العمر من آراء وأفكار، ولكى لا تفسد حياتنا إلى الأبد، لكـى لا يذهب هباء كل ما عشنا العمر مؤمنين به مكرسين حياتنا من أجله، فإن علينا أن نقرر فورا أن ذلك لم يكن إلا وهمـا وخيالا وأننا لم نر شيئاً على الإطلاق.

إن مظاهر وأشياء تملأ الدنيا من حولك، تواجهك كل يوم، كل لحظة من لحظات اليقظة وأنت تفتح المذياع وأنـت تقرأ الصحيفة، وأنت تسافر إلى الخارج، وأنت تمشـى فـى الشارع أو تجلس فى المقهى إلى أصدقائك، أو تتنـاول مـع أهلك وجبة الإفطار، أو تجتمع إلى الزملاء فى موقع العمـل أو تختلى بنفسك فى مكان ما، مظاهر تواجهك ولا تجد معها سبيلاً سوى أن تدير وجهك إلى الناحية الأخـرى متظـاهراً

بأنك لا تراها، مع أنك على يقين كامل بأنها هنـاك وأن مـا عليك إلا أن تلقى بنظرة نحوها لتقتنع بأنها هناك لهـا رأس وجسد وأذرع وأقدام وأعين وآذان وأفواه وألسن تخرجها لك جميعها فى مرة واحدة.

وتتحداك بها أن تفعل شيئاً، لكنك رأيت من الحكمـة تجاهل كل ألسنتها، وأصدرت لنفسك قراراً بأنها لم تر شـيئاً ولم تسمع شيئاً لأنك تعرف بأنك لو سمحت لنفسك بأن تراها أو تستجيب لندائها أو تعترف حتـى بينـك وبـين نفسـك بوجودها، لو حدث ذلك فإنك سـتقع لا محالـة ميتـا فـوق الأرض.

حقا إننا أحيانا نقرر أن نرى أشياء نعرف مسبقاً أننا لن نقع بسببها فوق الأرض أمواتا ونثير أكبـر قـدر مـن الضجة حولها، ولكنها حالات نادرة تلك التى نقـرر بـرغم النتائج الخطيرة أن ندير نحوها وجوهنا وننظر إليها بمـلء أعيننا وننتظر بعد ذلك الاستشهاد صابرين ! حتى وإن كـان الواحد منا شجاعاً بما فيه الكفاية لأن يراها مرة، فإنه سيمتنع عن رؤيتها آلاف المرات الأخرى.

إن ذلك ليس بالضرورة " تخاذلا" إنه جزء من طبيعة الحياة الذى بدونه لن يكـون الأهـل أهـلا، ولا الأصـدقاء أصدقاء ولا المجتمع مجتمعاً ولا الحياة حياة !!.

إن القرد الصينى الذى يسد أذنيه وعينيه وفمه لكى لا يسمع ولا يرى ولا يقول شيئاً، لا يقدم لنا أفضل (حكمـة) نهتدى بها فى حياتنا، فهو بالتأكيد قرد غبى، ارتضى سلامة الجبناء وظنها طريقاً مثاليا للسعادة، فلـيس هنـاك سـعادة لإنسان ألغى جميع حواسه، إن على الإنسـان أن يـرى وأن يسمع وأن يقول، وضرورى الحياة وحدها هى التى ترغمـه على ألا يرى كل ما رأته عيناه، وألا يسمع كل مـا سـمعه بأذنيه، وألا يقول كل ما يتمنى أن يقوله.. وأن يمضى فـى الحياة رافعاً رأسه، وأن يديره بين لحظة ولحظة إلى الناحية الأخرى لكى لا يختل النظام الذى يسير عليه الكون !!.

المسافة بين الورد والرماد

أيها اليوم الجديد الذى يأتى زائراً ويمضي:

من أرض المستقبل والمجهول تـأتى، وإلـى أرض الماضى تذهب وتمضى، وبين الماضى والمستقبل تبقى معنا لحظات هى عمق المسافة بين الورد والرماد..

رأيتك مرة تبقى دقيقة واحدة ثم تختفي... ورأيتـك مرة أخرى تبقى قرنا كاملاً وتمضى ولكن المسافة دائما هى عمر المسافة بين الورد والرماد !..

وبين مجيئك وذهابك، فإن خلايا تنمو وأخرى تتآكل، تضيف إلى الوجوه نضارة وضوءاً، ثم لحظات تضيف إليها خطوطا وظلالا، تغسلها بالماء الورد ثم تذر عليها الرمـاد.. وبين الضوء والظل، بين الورد والرماد، مسافة طولها بحجم طولك، وعمرها بقدر عمرك!

إن جولة صغيرة من جولات الصراع المجهول تبدأ بشروق هذا اليوم وتنتهى بغروب شمسه، ونأخذ مـع الليـل فسحة الاستعداد لجولة جديدة، فسيظل هـذا التحـدى الـذى يوقظه فى النفس مجيء يوم جديد، هو سر تقديم الحياة وسر انتصارها، وسيظل هذا الشوق للقاء المستقبل واكتشافه، هذا الشوق الذى يختلج فى صدورنا لحظة صحونا مـع بـواكير اليوم الجديد هو أهم سلاح فى أيدينا ضد رماد الزمن !

مهما تقادم الزمن، ومهما تعددت الأمكنة، فإن مشهد يوم جديد يولد، هو مشهد لا يفقد أبدا جدته وروعته، إن لـه نفس المذاق فى كل مكان ومع كل قوم، سواء كانوا يرتدون

القبعات أو العمائم أو يذهبون حاسـرى الـرءوس، سـواء يركبون الأفيال أو يركبون العجلات، إنهم جميعاً يخرجـون فى مظاهرة إنسانية لاستقبال اليوم الجديد، وفـى ملامحهـم ونظراتهم وخطاهم نفس العزم والتصميم وإرادة الحياة التـى تنفجر من تحت أقدامهم، إنك تحس وأنت تراهم فى الطريق يسرعون الخطى إلى مزارعهم أو مصانعهم أو أسـواقهم أو مدارسهم أو مكاتبهم أو مواقـع أعمـالهم الأخـرى، وهـم يتزاحمون أمام وسائل المواصلات العامـة، تحـس للوهلـة الأولى كأن وراء هؤلاء الناس شيئاً خطيرا لا بد من إنجازه اليوم، وفى انتظارهم مهمة عاجلة لو لم تتحقق اليوم فسيحل بالدنيا الخراب، ولكن الخراب لن يحـل بالـدنيا، لأن قلبـك يمتلئ ثقة بأن هؤلاء الناس سيحققون وعدهم، وسينهون على خير وجه إنجاز مهمتهم، وأن العالم فى مأمن طالمـا ظلـت هذه المظاهرات الإنسانية التى يخـرج فيهـا النـاس علـى اختلاف ألوانهم وأديـانهم ولغـاتهم وثقافـاتهم ومهـاراتهم وألبستهم وعقائدهم السياسية عند كل صباح!

إن مشهد يوم جديد يبدأ، يجعلك دائما تحس بالـدفء والأمان، فهذه أزقة وشوارع وميادين كانت منـذ لحظـات

خالية فإذا بها فجأة تمتلئ حياة وزحاما وضوضـاء وأبوابـا تفتح وأجراس مدارس تدق وهـدير آلات يتصـاعد وتـرى أمامك مظهراً من مظاهر الاحتفال بالحياة يبتدئ مع مـيلاد يوم جديد.

إننا نصحو من نومنا مع كل يوم جديد على أمـل أن شيئاً لم نتمكن من إنجازه سوف ننجزه هذا اليوم، وأن خبـرا عشنا نتوق إلى سماعه سوف نسمعه اليـوم، وأن أمـلا لـم يتحقق فى الأيام الماضية عله يتحقق اليوم، وأن وعودا لـم نستطع الإيفاء بها قد نجد فرصة لنفى بها اليوم، وأن أحلاما راودتنا لأيام طويلة قد نجد اليوم سبيلا يجعلها تغدو حقيقـة، وأن موعدا عشنا ننتظره سيكون ميعاده اليوم، وقد يمضـى اليوم دون أن يحمل لنا شيئاً جديداً، دون أن ننجز ما تمنينـا إنجازه، أو نفى بما وعدنا بإيفائه، أو نحقق فيـه شـيئاً مـن أحلامنا وآمالنا، ولكن هنا دائما يوم آخر سوف يأتى، ونسافر بأشواقنا وآمالنا وأحلامنا ووعودنا إلى اليوم الآتي.. ومهمـا حققنا فإن هناك دائما شيئاً لم يتحقق وسيظل الشـوق يعمـر قلوبنا من أجل تحقيقه مع كل يوم جديد يولد ... وسنظل مـا

حيينا نعيش فى المستقبل، وإذا كان الماضـى هـو وطـن الأموات وحدهم، فإن المستقبل هو وطن الأحياء.

إن كل يوم جديد يأتى هو كيان متفرد، متميز، له فى التاريخ رقم لا يتكرر أبداً، فلماذا إذا نفشـل أحيانـا فـى أن نحافظ على تميزه وتفرده، لماذا تكون أيامنا أحيانا نسخة ليوم واحد يتكرر فى حياتنا، له نفس المذاق ونفس اللون، لماذا لا نمزق الكربون ونكتب بالأمل والطموح والتجربة والمغامرة وحب الحياة نسخة جديدة من أيامنا كل يوم.. نعيش حكايـة جديدة وتجربة جديدة ونخصب حياتنا ونثريها ونعيشه تمرداً على الرتابة والصدأ والجمود !...

ويا أيها اليوم الجديد الذى يأتى زائراً ويمضي...

من أرض المستقبل والمجهول تأتى ... وإلى أرض الماضى تذهب وتمضى، وبين الماضى والمستقبل تبقى هنـا لحظات هى عمر المسافة بين الورد والرماد !.

رأيتك مرة تبقى دقيقة واحدة ثم تختفي... ورأيتـك مرة أخرى تبقى قرنا من الزمان.. ولكن المسافة دائما هـى عمر المسافة ببين الورد والرماد، بين الظل والضوء.

الذين يفرغون ماء البحر بملاعق القهوة !

ما أكثر تلك اللحظات المتطفلة الفضولية التى تـأتى كرسائل غفل من الإمضاء، تقتحم علـى الإنسـان هـدوءه النفسى، وتزرع رعشة طارئة من الفزع من عروقه، فيحس بلا جدوى الأشياء وعبثيتها، بأنه كمن ينفخ الرماد عن سواد الليل، أو يكتب الأشعار فوق ماء النهـر، أو يطـارد جيـاد العاصفة ويصطاد بنباله قطعان الريح، أو يغزل من خيـوط القمر ثوبا يرتديه فى الأعياد.. إنه لـيس إلا رجـلا علـى الشاطئ يغترف ماء البحر بملعقة القهوة بغية أن يفرغ البحر من مائه.. وإن ما كان يعتقد فيه بجدوى ما يفعله وما يقوله، بأنه سيصلح فساد الدنيا، ويضيف جديداً إلى الحياة، ويتـرك أثراً لخطاه على رصيف الشارع، ليس إلا وهما من الأوهام وباطلا من الأباطيل..

إحساس طفيلى، يأتى كرسالة غفل مـن الإمضـاء يقتحم على الكاتب محرابه، يشككه فى جدوى الرسائل التـى يؤديها، والقراء الذين يخاطبهم والكلمات التى يكتبهـا فـوق الورق.

فما نجهد أنفسنا فى قوله اليوم، قد قلناه منذ مليـون عام وليس ثمة جديد يضاف إلى ما قلناه وكتبناه عبر كل هذه القرون... وما تفعله اليوم هو بذاته ما نفعـه منـذ مليـون عام...

ويتزاوج الذكور والإناث، بمثل ما تزاوجـوا منـذ مليون عام، ويحب الولد البنت كما أحبها منذ مليـون عـام، وننجب الأبناء كما أنجبناهم منذ مليون عام، ويرضع الطفـل اليوم صدر أمه كما رضعه منذ مليون عام.. ونستعمل أيدينا فى العمل، وأسناننا فى المضغ وألسـنتنا فـى الكـلام كمـا استعملناها منذ مليون عام.. ونتبادل الشتائم ونقـيم العـراك والخصومات كما فعلنا منذ مليون عام... وعبرنا عن حزننا بالبكاء، وعبرنا عن سرورنا بالضحك والرقص كما عبرنـا عن ذلك منذ مليون عام...

ذات التعبير استعملناه قديما، ونستعمله اليوم ولسوف نستعمله غداً.. وليس هناك جديد نضيفه، فما الحياة إذا سوى اجترار وتكرار وإعادة مستمرة لشريط واحد مهترئ يحمـل ذات النغمات والكلمات.. فكل ما نفعله اليـوم هـو تكـرار لأفعال فعلناها منذ مليون عام... وكل ما نقوله اليـوم هـو

تكرارا لكلمات قلناها منذ مليون عام.. نحن فقط نتصور أننا نكتشف كلمات جديدة وأننا نعبر بأدوات جديدة فى حين أنـه وهم وباطل وخيال ... فالليل لن يصير نهارا مهما نفخنا عنه الرماد، وجياد العاصفة لن تكون حيوانات وديعة نجر عليهـا العربات فى الأسواق، وخيوط القمر لن تكون نسيجا نصـنع منه فساتين لزوجاتنا، وسيظل البحر بحرا مهما كـان عـدد الملاعق التى نستعملها فى إفراغه من مائه.

وهو إحساس لا بد وأن يخامر فكر كل إنسـان، وأن يقتحم ساحات العمل على كل العاملين لكنه إحساس متطفـل على الحياة إذ هو سرعان ما يتنهى ويتبخـر ويـذوب فـى سخونة العمل بدليل أن الأقلام لن يجف حبرها ولن تتوقـف عن الكتابة، والمصانع لن تتوقف عن الإنتاج، والبنـاء لـن يتوقف عن التشييد.. والحياة تمضـى والإنسـان يواصـل مسيرته ويحقق يوما بعد يوم تدرجه الحضارى، ويسعى لأن يكون يومه أفضل من أمسه وغده أفضل من يومه، وينجـب أبناء يحرص لأن تكون حياتهم أجمل وأروع من الحياة التى كانت له.

وقد يتمكن هذا الإحساس من أنفسنا حينا من الأحيان خاصة فى الفترات العصبية من التاريخ، تلك التـى تعقـب الكوارث والهزائم وسنين الحرب، فإذا به ينعكس مدرسة فى الأدب والفن، ويشق له تيارا كغيره من التيارات الفكرية التى تطرح نفسها، وتخلق لها مسارا فى الحياة، وتصنع لها كتابا ومريدين... ولعل هذا ما جعل كاتبا عملاقا مثل البير كـامى يتبنى فلسفة عبثية، ويعيد للحياة أسـطورة مثـل أسـطورة سيزيف الذى حكمت عليها آلهة الإغريق بأن يقضى حياتـه يرفع حجراً ثقيلاً إلى قمة الجبل، ثم يسقط الحجر ليدفعه من جديد، وهكذا يواصل إلى الأبد مسيرة عبثية مضنية، ويجعل من إنساننا هوسيزيف العصر الحديث.

وهذا أيضاً ما جعل شـاعرا فحـلا، مثـل ت. أس. أليوت يكتب " رجاله الجوف" و "أرضه اليباب" وفى ذهنـه هذا الإحساس بلا جدوى الأشياء...

ومع ذلك تظل هذه الأعمال الأدبية الكبيرة، وهؤلاء الكتاب الأفذاذ الذين سيطر على أدبهم وفكرهم هذا الإحساس علامات على فترات النكوص فى تاريخ الإنسـان، وشـهود عيان لما تتردى فيه المسيرة الحضارية من كبوات، وصوت

يعكس خيبة الأمل فى قصور البشرية عن تحقيـق عالمهـا الأفضل، ولكنها فى ذات الوقت دعوة متجـددة لأن تكـون حياتنا أكثر خصباً ومسيرتنا الحضارية أكثر أصالة وعمقـا، لكى تطرح فكراً أعظم إيجابية وأكثر التزامـا بقـيم الخيـر والمحبة والجمال التى يجب أن تسود علاقات البشر.

وبرغم هذه الأصوات، فإن الحياة فى وجهها الأكثـر إشراقا تواصل تقدمها، والإنسـان يواصـل رحلـة البنـاء، ويضيف كل يوم جديداً ويقطع شوطا نحـو تحقيـق آمالـه وطموحاته فى تحقيق عالم أجمل.

حتى وإن كان فى نية هذا الإنسان أن يحرث البحر، أو يفرغه من مائه، أو يصنع مـن خيـوط القمـر لباسـا، ويصطاد قطعان الريح، إذا كان ذلك فى نيته حقا، فإنه سيجد طريقة ما لتحقيقه، لسوف يستعمل أدوات أفضل من ملاعـق القهوة يفرغ بها البحر من مائه، إذا أراد ذلك، ولعله استعملها فعلا، بل لعل أجزاء من البحر نراها تصير يابسة تشق فوقها طرق الإسفلت وتبنى فوقها العمارات.

وهو لم يصنع من خيوط القمر لباسا، وإنما جعل منه مكانا للنزهة، فقد صار الآن يذهب إليه ويجلس على أرضـه

ويقضى الأيام متنزها فوق سطحه... والريح والعواصف لم يعد الإنسان كما كان قديما منطقة لنفوذها وسـيطرتها فقـد أحالها إلى مناطق نفوذ له، صنع مراصد ترصدها وتعـرف تحركها، وصنع أجهزة توجه مسارها وتقاوم جموحها، وأنـه قد لا يحرث البحر بمحراثه القديم، وإنما بعقله وعلمه فيصنع من مائه ماء للشرب وللحياة يروى الأرض وينبت الزرع.

فرحلة الإنسان ليست عبثا، إذ كيف تكون عبثـا إذا كان قد حقق كل ما حققه من تقدم واستطاع أن يرتقى بسلوكه ومعارفه كل هذا الارتقاء...

إن للإنسان أوجه قصوره، وإن أحلاما كبيرة وكثيرة لم يحققها بعد، لم ينشر فى عالمه عدالة كما يبغى ويريد، لم يجعل السلام حقيقة سائدة بين كـل الأجنـاس كمـا يطمـح ويتمنى، لم يرتق بسلوكه إلى ما ينشد الارتقـاء إليـه مـن مثاليات، فما أكثر الحروب التى تنشب بين بنى الإنسان، وما أكثر المظالم التى تحدث فى العالم كـل يـوم، ومـا أكثـر المجاعات التى تنتشر فوق أجزاء من كوكبنـا الصـغر... ولكن هذا لم يهبط من عزيمته أو يحد من انطلاقه، بل لعـل فى هذا سببا أكبـر لأن يواصـل مسـيرته النضـالية، وأن

يضاعف جهده لتحقيق كل ما يملأ خياله وذهنه من طمـوح وآمال، وأن يتمكن من بناء عـالم تختفـى منـه الحـروب والمجاعات والمظالم والأمراض.

إننا لا ننسى أن الحياة تجدد نفسها وتطرح جديدا كل يوم، وأن الينابيع نفسها تتدفق بالماء صافيا جديدا كل ثانيـة، وأن الإنسان كما يقولون لا يسبح فى ماء النهر مرتين فمـاء النهر يتواصل ويتجدد كل دقيقة... وأن الحياة ما هى إلا نهر يتدفق ويتجدد ويواصل مسيرته..

وإذا حدث وجلست ذات صباح تشرب قهوتك وتذيب بالمعلقة السكر فى فنجانك وطافت بذهنك أحـلام ومشـاريع تبتغى تحقيقها فى الحياة، ثم جاء ذلك الأساس الخبيث مختبئاً فى نسمات الصباح يقتحم عليك جلستك ويهمس فـى أذنـك قائلا:

ويحك ألا تدرك أنك لست إلا أحد الذين يفرغون ماء البحر بملاعق القهوة.

لا تغضب أو يحتد بك الانفعال..

واصل تحريك السكر فى فنجـان القهـوة بالمعلقـة الصغيرة ودع فكرك يذهب مع تلك المشاريع والأحلام التـى تنوى تحقيقها.

ولا تكترث.. فهو سرعان ما يختفى فـى الفضـاء الرحب اللانهائي.

وفى القلوب المحبة

أعترف منذ البداية أننى لست ضد مجيء سنة جديدة فأهلا بها ومرحبا فى أى لحظة، إن لها الحق أن تـأتى وأن تقتحم على حياتى متى شاءت، وأن تبقى قليلا أو أكثـر ثـم تمضى دونما اعتراض، ودون أن يكون ذلك سببا يجعلنـى أعبر عن أية أشياء نحوها، وسأظل أحمل لها فى قلبى كل ما فى الدنيا من أمنيات طيبة، راجيا بكل إخلاص أن تكون سنة خير وسعادة وهناء على البشرية بأجمعها، كل ما فى الأمـر أننى فى تلك الليلة وقبل دقائق من موعد قدومها وجدت نفسى أجلس صامتا دون أى إحساس بالابتهاج أو الفرح، ولم يكـن ذلك بالطبع ناتجا عن أى رغبة فى إيذاء أو إهانـة القادمـة الجديدة، أو أى استهتار بما لها من مكانة وما تحملـه مـن

دلالات ومعان، أو نية مبيتة لاستقبالها بطريقة تنتقص مـن قيمتها ومهابتها.. حاشا .

لم أجد فى نفسى دافعا حقيقيا للفرح ... هذا كل شيء فكما أننى لست حزينا لأن سنة قد طوت أوراقهـا وحزمـت حقائبها وحان أوان رحيلها، فأنا أيضاً لست مبتهجاً ولا مهتما لأن سنة جديدة قد حان موعد قدومها، لقـد تكـررت هـذه المناسبة فى حياتى إلى الحد الذى أصبحت معه مناسبة عادية فقدت – منذ زمن طويل قدرتها على بعث الدهشة والإثـارة فى نفسي.

سأتصفح مجلة كانت على المنضدة أمامى، ثم أستعد للذهاب إلى فراشى، وليحتفل من شاء له المزاج أن يحتفـل، يرقص أو يغنى أو يصلى أو يفعل ما يراه مناسبا لاسـتقبال العام الجديد كما يشاء، أما أنا فأستكفى بالجلوس والقراءة ثـم الذهاب إلى النوم بعد ذلك، ولأمر ما خطر على ذهنى تصور ساذج أفسد على هدوئى، فقد تصـورت أن السـنة الجديـدة سوف تغضب لو جاءت ووجدتنى على هذا الحـال، سـوف تعتبر عدم ابتهاجى وفرحتى إهانة موجهـة لهـا شخصـيا، وتعاطفا مقصودا مع السنة التى مضت وستظل طوال مـدة

بقائها تحمل حقدا وضغينة لى، وأنها سوف تتفنن بعد ذلك فى إيذائى والتنكيل بى ردا على هذا الاستقبال الذى ينتقص مـن كرامتها ولا يليق بما لها من مهابة وجلال، وطالما أن العادة جرت بأن يحتفل الناس بهذه المناسبة، فإن جلوسى صـامتا على هذا الحال سيكون خروجا على الإجماع وشـذوذا عـن القاعدة وتصرفا لن تغفره لى القادمة الجديدة.. هكذا بدا الأمر فى ذهني... ولكى لا تفاجئنى عندما تأتى وتضـبطنى فـى حالة تلبس بالجلوس صامتا دون بهجة، فقد حاولت فيما تبقى من دقائق أن أتدارك الأمر، وأبـدى قلـيلا مـن الابتهـاج والفرحة، ولأن أحدا لم يخترع بعد أزرارا ندوس على أحدها فتتفجر فى قلوبنا ينابيع الفرح أو على الآخر فتهـرب مـن نفوسنا طيور الحزن والقلق ... لأن أحدا لم يكتشف اختراعا كهذا بعد... فقد بدت المهمة شاقة وعسيرة، إذا كان على أن أفتعل الفرحة افتعالا، أو أتكلف الابتسـامة أو الغنـاء تكلفـا وأعتقد أن سنة جديدة لها كل هذه المهابة وهذا الجلال سوف لن ينطلى عليها الأمر، وستعرف على الفور إذا مـا كنـت صادقا أو متكلفا.

قررت أن أطرد ذلك الخاطر الذى أفسد على هدوئى، لتغضب سيدتى الجميلة أو لا تغضب، لن أضع لذلك أهميـة كبيرة، فأنا لا أحمل لها فى قلبى أية نية سيئة، إنها سـتعرف ذلك على أى حال، وستعرف أيضاً عن عدم ابتهاجى لـيس ناتجا عن أية رغبة فى الإساءة إليها أو إلى أى أحد غيرها، فمن أنا حتى أسئ إلى حضرة سيدة لها ما للسنة الجديدة من مكانة عالية، كل ما فى الأمر أننى لا أملك ما أقدمـه إليهـا سوى الأمنيات بأن يكون حظها أفضل من حـظ سـابقاتها، وأننى لا أستطيع أن أتصنع الفرحة أو الدهشة لأن مجيئها أو ذهابها لم يعد يثير دهشتى، ولا أعتقد أن شيئاً كبيراً قد طـرأ على الدنيا. ولا أرى فى مجيئها سوى موسم نشط للحكومات والتجار وأرباب الأعمـال وأصـحاب الأرصـدة يقفلـون ميزانياتهم ويحسـبون أرصـدتهم ويضـعون المخططـات لمشاريعهم وصفقاتهم الجديدة ويجلسـون لحظـة لإحصـاء أرباحهم خلال السنة التى مضت، ما عدا ذلك فـإن السـنة الجديدة تأتى الآن وستمضى لتأتى سنوات كثيرة بعدها.

وستظل الكلمات التى تنير جبينهـا المجـد فـى الأعالى وفى القلوب المحبـة... وعلـى الأرض السـلام –

تجسيدا لحلم نبيل عظيم سوف يمضى زمن طويـل قبـل أن يصل عالمنا إلى تحقيقه، وتعبيرا حقيقيا عـن هـذا الشـوق الإنسان العارم إلى الخير والعدل والمحبة والسلام، الشـوق إلى عالم بلا حروب ولا مجاعات ولا أحقاد.

ويا أيتها السنة الجديدة، أيتها السيدة الجليلة. مرحباً!!

تأشيرة دخول إلى عالم الأطفال

الامتحان

الدخول إلى عالم الأطفال امتحان لا ينجح فيـه كـل الناس، وحتى تستطيع أن تحصل على تأشيرة دخـول إلـى عالمهم، فإن أوراقا لا بد أن تقدمها، لا بـد أن تفـتش فـى خزائن نفسك عما تبقى فيها من صدق وبراءة تستطيع بهمـا أن تحصل على الموافقة ! !

إننى شخصياً كلما أردت أن أرتاح قليلا وأبحث عن سعادة لا يقدمه النادى أو الشاطئ أو المقهى أو الكتاب، فإننى أذهب إليهم، أسأل عن تأشيرة تسـمح لـى بـالمرور إلـى مدينتهم، وأعيش لحظات مع صدقهم وبراءة.

وهناك فإن عالما آخر ينتظرك، عالما أبهى وأجمـل وأكثر صدقا وشفافية وحبا... لا وجود هناك لأمراض القلق

ولحظات اليأس وهموم المعيشة والرزق، ومشـاكل الـدنيا والعمل، وأخبار السياسة وصداعها. لن تمضغ سيرة الآخرين كما فى مجالس الكبار، ولن يكون حديث عن مشاكل الحيـاة المعقدة كما فى الكتب، ولن يكون نقاش لأكداس التخلف التى تملأ المجتمع وأمراض العصر والكوارث التى تملأ العالم مما فى الصحف والإذاعات وأحاديث المجتمع، إن عالمـا آخـر يفتح أمامك الآن ذراعيه، عالما أسطوريا يذكرك بمدينة الحلم وطائر الأسطورة وسندباد البحر، حيث تسافر ما طاب لـك السفر فوق بساط الريح، وتدخل قصر الأميرة النائمة، وتعقد صداقة حميمة مع (ساندريلا) وتلتقى عندها بالجنيه الطيبة، وترتدى إن شئت أجنحة (كاسبر) وتزور جزيرة روبنسـون كروزو، سيكون حديثهم معك عـن الأسـاطير والحكايـات والخيال، وستدخل معهم اللعبة وتنشئ معهم مدينة تصبح فيها الأرانب أمراء وأميرات، والعصافير فلاسفة، والثعالب رجال سياسة وحكمة ودهاء، ستجد الريح تلقى خطابـا، والشـجرة صارت مطربة، والزهور والورود والأعشاب تعقد مهرجانا للرقص والموسيقي.

وأنت فى حضورهم فإن عالما قديما مليئا بالأمراض ينتهى ويتلاشى، وعالما جديدا نقيا يبدأ الآن!

لقد مللت ما تمتلئ به الدنيا من أكداس الكذب والنفاق والمجاملات، مللت الضحك الكـاذب، والغضـب الكـاذب، والحماس الكاذب، والحزن الكاذب، وهـا أنـت هنـا تجـد الضحك نقيا كالمطر، والكلام صادقا شفافا بريئا كأنـه لغـة الملائكة، وستجد العدوى قد انتقلت وأنك هنا بعكس ما كنـت فى عالم الكبار... تضحك بصدق وتحـب بصـدق وتـتكلم بصدق.. وستكتشف كم هو جميل هذا العالم ! ولكن قبـل أن تذهب، فإن عليك أن تعلم ان الدخول إلى عـالمهم امتحـان صعب، إذا فشلت فيه فإن هناك خطأ ما، خطأ ليس هينا فـى نفسك، خطأ قد يفسد كل حياتك، وأن عليك بسرعة أن تبحث عنه وأن تهتدى إلى حل له، وإلا فإنك خاسر إلى الأبد !!

الأصدقاء

رأى الطفل البحر لأول مرة ...

راعه أن يكون أزرق كبيراً منتشراً فى كل مكـان، شاسعاً بحد الأفق ... بدأ شيئاً فشيئاً يتعرف إليـه، ويقتـرب

بحذر منه، ثم جاءت أرانب موج البحر تركض نحوه،، ففرح الطفل، وقرر على الفور أن البحر صديقه!

شاهد من فوق سطح البيت النجوم، راعه أنها كثيرة كثيرة، وحاول وقد تعلم حديثاً كيف يعد الأشياء، أن يعـدها، فشل، لكنه رآها جميلة تضئ سواد الدنيا... فقرر من فـوره أن كل هذه الأنجم أصدقاء له!

رأى الشمس تشرف من خلف الأفق، كـرة تتـوهج وتضئ، تمنى لو يملكها، أو أن أحدا يذهب الآن ويحضـرها كى يلعب بها، قرر أنه قد أحب الشمس، وأنه عنـدما يكبـر سوف يسافر لإحضارها!!

المرآة

وقف الطفل أمام المرآة.

رأى ولدا يشبهه يحمل كرة بين يديه.

اقترب الطفل من الطفل، ابتسم له فابتسم له الطفـل الآخر.

رآه قريبا منه، ويلبس مثل ثيابه، فى يده كرة مثـل كرته، فأحب الطفل، وأراده أن يصبح منذ اليوم صديقه !

تقدم منه يسأله فى حب أن يلعب معه !

الطفل الآخر يتقدم مبتسماً ويرحب بالفكرة !

جاء يمد إليه يدا، يأخذه كى يلعـب فـى السـاحة، اصطدمت يده بجدار المرآة.

اغتاظ الطفل.

ذهب يبحث عن حجر على جدار المرآة يتهدم كـى يأتيه الطفل الآخر.

تحطمت المرآة.

لكن الطفل الآخر لا يظهر..

ذهب يبحث عنه، يسأل فى كل مكان عن طفل آخـر يشبهه، يلبس مثل ثيابه، ولديه كرة مثله، أين يمكن أن يلقاه؟

لكن أحدا لا يفهم.. والطفل يعيش على أمل أنه فـى يوم ما سوف يلاقيه!

الكتاب

أخذ الطفل كتابا، جلس وحيدا يكتشف السر !!

كان كتابا يتحدث عن فلسفة الكون، أو عله يتحدث عن تربية الأطفال، أو يتحدث عن علم نمو الإنسان، لكن الطفل وقـف أمامه مندهشاً...

ماذا فيه لينكب عليه أبوه طوال اليوم، ماذا فى هذه الصـفات لتكون مجالا يقضى فيه أخوه الأكبر سـهرته ولا يلعـب أو يمضى للسوق أو الشارع.

لم يعرف حلاً للغز...

فقرر أن يبدأ فورا فى أكل صفحاته... لعله يكتشف السر ! !

المطر

هطل المطر غزيراً وأفسد عليه اللعب !

جاء الطفل إلى ابيه محتجا، يسأله أن يوقف من فوره هذا المطر، كى يكمل ما بدأ من لعب... لكن أباه نظر إليـه حائراً.. لم يقدر أن يفعل شيئاً.

فبكى الطفل ... وأدرك بينه وبين نفسـه أن أبـاه لا يعرف كيف يدير الكون !!

الدمية

ما أعجب هذه الصغيرة مع دميتها !

ما أعجب هذه العلاقة التى تنشأ بينهما !

نحن نرى الدمية، ساكتة لا تـتكلم، لا تضـحك ولا تصرخ، لا تستيقظ ولا تنام، لا تأكل ولا تشرب، لا تسـمع ولا ترى، ولا تدرك ولا تتنفس، ولكـن أنظـر إلـى تلـك

الصغيرة كيف ترى دميتها، كيف تعاملها، كيف تنشئ تلـك العلاقة الحميمة معها. أنظر إليها وهى تسألها أن تشـرب أو تأكل، وهى تسألها أن تستيقظ، أو تدعوها بعد اللعب إلى أن تنام لأنها تعبت كثيراً هذا اليوم.

إن أعظم ما فى عالم الأطفال هو هذه القدرة علـى إنشاء علاقة مع الأشياء، مع الجماد والنبات والحيوان، هـذه القدرة التى كلما كبرنا صارت تتضـاءل وتتضـاءل حتـى تختفى مع نفوسنا !

اللعب

دعانى طفل كى ألعب معه فى الشارع.

كان قد اكتشف لدهشته الكبيرة أن من يلعب معهم فى تلك الساحة كلهم صغار فى السن، واندهش لأنـه لا يلقـى رجلا يلعب أو أما... لا يجد كبارا مثل أبيه أو أمـه يبنـون قصورا من طين، ويقيمون المدن الوهمية...

فجاء من فوره يجرى دعانى أن ألعـب معـه فـى الشارع..

لم أقدر

غمر وجهه فى الحال تعبير يملتئ أسى.

كأنه أدرك فى تلك اللحظة أن أحداً ما يمنعنى قسـرا من ذلك !!

اكتشاف

اكتشفت يوما كيف أن الأطفال يعرفون هـم أيضـاً كيف يكيدون للكبار.

فقد قلت لابنى يوما أسأله:

عم تتحدث أنت وصديقك؟!

قال بلهجة من سجل نصراً:

هذه أشياء لا يعرفها إلا من كان فى سنى أو سنه!

أدركت لحظتها كيف أن الولد يرد لى الكيل عنـدما جاء يوما يسألنى عن موضوع نقاش بينى وبين صـديق، إذ قلت اذهب والعب.. هذا حديثا لا يعرفه من كان فى سنك !

الكلمة

تجمعت العائلة فى بهو البيت تحتفل بمناسبة ما...

جاء الطفل سعيدا يشارك أهلهم فرحتهم ويقول كلمة !

فرآها تحدث تأثيرا لم يخطر أبدا على باله.

العائلة فجأة يغمرها ذعر لم يدر لـه سـببا، بعـض رجال العائلة يفرون من الباب، والبعض الآخر صار يغطى وجهه بيديه خجلاً، وتعم الفوضى جو البيت ويضيع الحفـل، وفى غضب جاءه أكثر من صوت يمنعه أن يفتح فمه بكـلام من هذا النوع، أو ينطق هذه الكلمة فى مرات أخري... !.

ظن الطفل أن الكلمة سحر أو أنها جبـل أو أن لهـا مفعولا مثل الحرب أو الموت أو الشيطان أو الأشياء المرعبة الأخرى مما يسمعه فى قصص جدته!

وقرر بينه وبين نفسه أنه كلما أراد أن يمنع الشـمس من الشروق، أو يجعل المدينة أو المدرسة تختفى من الدنيا، أو يمسخ خصما من خصومه فى اللعب.. هو أن يلقى فـى وجهه بهذه الكلمة !!

بيت له شرفه على البحر !

عشت منذ صباى أسير وهم كبير هو أنني سـأكون فى يوم من الأيام شاعرا له شأن وعلى هذا الأساس مضيت أمارس حياتى وأرسم خطط المستقبل وأكتب عددا لا يحصل من قصائد الشعر التى كنت دائما أكتشف فى النهايـة أنهـا

ليست شعراً وإنما هى هلوسة وضرب من الكلام الفارغ الذى لا يساوى ثمن الورق الذى استعمله فى الكتابة !

وبالرغم عن فشلى فى كتابة الشعر حتى يومنا هـذا، فإن هذا الوهم لم يفارقنى لحظة واحدة، وما زلت حتـى الآن أظن نفسى شاعرا كبيرا لم يهتد بعد إلى موهبتـه الحقيقيـة ويوم يهتدى إليها فالويل لكل شعراء الأرض الذين سيتحولون بجواره إلى أقزام؟

ولا أدرى كيف خطر فى بالى يوما أن موهبة الشعر فى نفسى سوف لن تفتح أختامها ولن تكشف أسرارها إلا وأنا أسكن بيتا له شرفه تطل على البحر، ثبت فى ذهنـى يقـين كامل أن هذا هو ما تحتاج إليه موهبتى الشعرية لكى تنفجـر ينابيع وخصبا وحبا وتغرق الدنيا بأحلى وأجمل الأشعار، ولا أدرى أيضاً من أين جاءنى الظن بأن للشعر ملائكة تعشـق البحار وتحب ركوب الأمواج وتستمع بموسيقى البحر وأنهـا لن ترضى بزيارتى أو مقابلتى إلا إذا سكنت لها بيتـا علـى البحر، عندها فقط سوف تأتى ترف بأجنحة من نور لـتحط مثل الحمائم الوديعة فوق شرفة البيت وتفـتح علـى الفـور مناقير الملائكية وتسكب فى أذنى أجمل قصائد الشعر. تأكـد

فى ذهنى أن الشعر لن يكون شاعرا بحق إذا لم يجد له بحراً يسكن بجواره ويستمد من سيمفونية أمواجه موسيقى للشـعر الذى يكتبه، وتأسفت فى نفسى كيف أن أحدا لم يتنبه إلى هذا الأمر وكيف أنهم حتى الآن لم يصدروا قانونا يمنع السـكنى على البحر لغير الشعراء، بل إننى كنت أبث هذه الشـجون لكل من ألتقى به من الأصدقاء وأجعله قضيتى الوحيدة التـى أشغل فكرى بها ليلا ونهارا وأقول لهم أن بلادنا لن تعـرف شعراء عظاما مثل بقية بلاد الدنيا ما لم تبن لشعرائها بيوتـا على البحر فقد أدركت بما لا يقبل مجالا للشك أن البحر هو مصدر الشعر وواهب الحياة للشعراء.

وتأسفت لحال الدنيا التى تجعل الشـعراء يسـكنون الأحياء القديمة البعيدة عن الشاطئ وغيرهم ممن لا يـوحى لهم البحر بشيء على الإطلاق ولا يهز أبداً مشـاعرهم ولا يفجر فى نفوسهم لا مواهب الشعر ولا النثر هم وحدهم الذين يسكنون بيوتا لها شرفات تطل على البحر، بل إن أغلـبهم لا يحمل حبا ولا مودة للبحر بدليل أنهم يقفلون أحيانا بالإسمنت والحجارة أى نافذة يأتى منها نسيم البحر !!

وزاد فى يقينى أن الحكومات فى العالم كله لا تـولى الشعراء اهتماما كبيراً، فقد انشغلت بما يملأ الدنيا من أزمات سياسية واقتصادية ولم تنتبه يوما إلى ما يعيشه الشعراء مـن أزمات. ولقد ركنت إلى كهف رطب قديم فى حـى يمتلـئ بالضجيج والفوضى رافضا أن أتزحزح عنه إلا يوم أن أجد بيتا له شرفة تطل على البحر وجعلت من كـل هـذا هـدفا أكرس له حياتى وأقضى كل أيامى فى البحث عن هذا البيت، وكنت دائما أنتظر يوما تصبح فيـه المسـاكن أقـل سـعرا وأرخص ثمنا أو يوما ترتفع فيه مرتبات المـوظفين بحيـث تسمح للشاعر الوحيد بينهم بتأجير بيت على البحـر. لكـن البحر يزداد كل يوم ابتعادا عنى وإيجارات البيوت نبتت لها أجنحة وحلقت فى أبعد الأفاق ثم استبدلت أجنحتها بـأجهزة حديثة استوردتها من كيب كندى وصـارت تنـافس السـفن المسافرة إلى المريخ فى حين حفرت مرتبات الموظفين خندقا فى الأرض وعسكرت فيه منذ عشر سنوات غير عابئة بكل ما يطرأ على العالم من تغيير وما يحدث فـى الـدنيا مـن أزمات.

ولقد جاءت وزارة الإسكان لتحل أزمة السكن فى كل مدن الجمهورية إلا مدينة طرابلس التى تزداد فيهـا أزمـة السكن كل يوم استفحالا وجبروتا.

بحيث طار أملى فى الحصول على بيت بجوار البحر فهذا البيت لم أصل إليه عندما كانت الأزمة شرارة صـغيرة فكيف وهى الآن حريق يأكل المدينة، ولم آسف لشيء قـدر أسفى على هذه البلاد التى ضيعت من بـين يـديها شـاعرا كبيراً.

ولقد اهتديت أخيرا إلى أن لوزارة الإسكان حكمة فى ترك هذه الأزمة على ما هى عليه، فهى تعرف أن الهجـرة من الأرياف إلى المدينة كانت أزمة جعلت الناس يغـادرون قراهم ومزارعهم ويلهثون وراء أضـواء المدينـة إلـى أن صادر لنا ريف خال مهجور. ولقد جـاءت أزمـة السـكن الأخيرة لتجعل منها وزارة الإسكان هجوما مضادا تواجه به مشكلة القرى المهجورة، بحيث يهرب الناس مـن المدينـة ويعودون مرة أخرى إلى القرى والأرياف، ولا شـك أنهـا خطة حكيمة جاءت بأعظم النتائج، فإن جماهير عريضة من

أهل المدينة المتأزمين سكنيا قد صاروا يحزمـون أمتعـتهم ويكتبون انتقالاتهم ويتوسلون العودة إلى القرى.

أنا شخصياً لم يبق أمامى إلا أن أكتب انتقالة للعمـل بإحدى قرى الصحراء، فلا شك أن فى ذلك الحـل الوحيـد للأزمة التى أعانيها، وإذا كنت قد فشلت مع البحر فمن قـال أن الصحراء لا تفجر هى أيضاً مواهب الشعراء تماماً كمـا يفعل البحر، إن امرأ القيس لم يكن يملك بيتا علـى البحـر، وإنما خيمة تحيط بها رمال الصحراء. فلعل الصحراء الليبية تجعل منى أنا أيضا امرؤ قيس جديد، وسيكون أول بيت من الشعر أقوله وأنا أهجر أملي فى البحر وأغادر طرابلس إلى خيام الصحراء هو :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

لنا فيه آمال بحى الأندل

ساعة من التأمل التطوعى !

أعرف صديقاً اديباً، يقتطع كل يوم ساعة كاملة مـن وقته، لكى يقيها مع نفسه!

وهى ليست ساعة للنـوم أو للراحـة أو التسـلية أو اللعب أو الاستحمام، إنها ساعة للعمل، نـوع مختلـف مـن

العمل، فهو لا يقضى هذه الساعة مع نفسه متفرغـا لقـراءة مجلة أو كتاب أو للصـلاة والتسـبيح والعبـادة، أو لكتابـة المذكرات الشخصية أو للاستماع إلى أغانيه المفضلة أو لحل فوازير رمضان، أو للحديث الهاتفى مع صـديقه سـرية، أو لاختبار قدراته للتعامل مع ابنه ملك الجان كما يفعل من رفع عنهم الحجاب.

إنه موعد يحدده لنفسه مع نفسه كل يوم لأداء مهمـة واحدة هي.. التأمل !..

وكما يضرب موعدا لصـديق مـن الأصـدقاء، أو يحضر مع أحد الناس موعدا للقاءات العمل والوظيفة، فهـو يضع فى مفكرته موعدا يوميا لمدة ساعة من الزمن للقاء هذا القريب البعيد الغائب الحاضر، الواضح أحيانـا والغـامض المجهول أحيانا أخري... موعدا للقاء ذلك الإنسـان الـذى بداخله.

ساعة من الزمان يجلس فيها كل يوم لنفسه، ينتشلها من طاحونة العمل اليومى، ومتاعب الحياة ومشاكلها، ويصفو لها قليلا، لا ليعاتبها أو يحاسـبها أو يتفكـر فـى مسـتقبله وماضيه والمشاكل الشخصية فى حياته أو يسـترجع معهـا

ذكريات حب قديم.. إنه فقط يجلس لها يتأمل معهـا الحيـاة والكون والناس والأشياء، فى سبيل تحقيق ما ينشـده القلـب الإنسانى من الصفاء الذهنى، والتوازن النفسـى، والالتحـام والاتحاد الروحى مع الأشياء... وتعميق الفكـر والمـدارك، والوصول إلى مرحلة من الفهم العميق لما تحتويه الدنيا مـن أسرار...

ساعة يرى صديقنا الأديب أنها أقـل مـا يمكـن أن نمنحه من وقته لخدمة هذه العلاقة الحميمة بيننا وبين الحقائق الكبيرة فى الحياة... ويستدل بما قرأ من أن (نيوتن) ما كان يمكنه أن يكتشف سر الجاذبية وهو يرى تفاحة تسقط فـوق الأرض لو أنه لم يكن مختليا بنفسه فى حالـة مـن التأمـل العميق لأسرار الكون وأسرار الحياة، منحته صفاء وشـفافية جعلته يرى ما لا يمكن أن نراه فى حالاتنا العادية... فهو ما كان ليكتشفها لو أنه كان مشغولا بإحدى مشاكله الشخصية أو مستغرقا فى الحديث مع الأصحاب والخلان.

وهذه الساعة ليست هروبا من واقع الحياة ومعاناتها اليومية، إنما هى عودة إلى جوهر الحيـاة، واحتفـال بكـل معانيها العظيمة وأسرارها الكبيرة التى غالبا ما نتناساها فى

زحمة المشاكل والهموم الصغيرة.. إنها ليست هروبـا مـن واقع الحياة، ذلك يحدث عندما يستعمل الإنسـان مخـدرا أو مسكرا يفقده وعيه وينسيه واقعه، ولكن هذه الساعة هى عودة أصيلة للوعى والعقل وتمثل حقيقى لعلاقة الإنسان مع نفسـه وعلاقته بالتالى مع هذا الكون بأجمعه.

إن عليه حقا أن يبتعد فيها عن مشاكل الحياة اليومية، فهى لحظة أثمن وأرفع وأسمى من أن يقضيها الإنسان فـى مناقشة مشاكله وهمومه الشخصـية، إن الـذهن يجـب أن ينصرف كله للأشياء الكبيرة، فهى رحلة قصيرة مع أسـرار الكون، وسبر لأغوار النفس البشرية، إنها تخدم أيضـاً تلـك النصيحة الخالدة التى خطها قدماء الإغريق علـى معابـدهم وهى (أعرف نفسك) إذ كيف لك أن تعرف نفسك وأنت فـى زحمة مشاغلك العملية ومشاكلك الشخصية ولقاءاتـك مـع الآخرين، لا تراها ولا تلتقى بها، فلا بد إذا من موعد يومى ثابت تلتقى فيه بها، موعد تتحرق شوقا إليه، كمـا يحتـرق الإنسان للقاء حبيبة هى أقرب الناس إلى قلبه، لقاء لا يجـب إهداره فى الأمور الصغيرة وإنما مناجاة ومخاطبة وتعمق ما فى الحياة. وأعمق ما فى الإنسان.

وصديقى يرى فى هذه الساعة واجبا إنسانياً لا بد لكل فرد منا أن يؤديه، وضرورة لا غنى عنها من أجل تحقيق وجود أفضل للإنسان وعلاقة أعمق بينه وبين العالم، وهو يسعى جاهدا لإقناع كل من يلتقى به من الأصحاب بتخصيص ساعة من وقته، يضرب فيها موعدا يوميا للالتقاء بنفسه وممارسة هذا التأمل الخصيب الذى يثرى الحياة ويزيدها غنى ونماء.

إنه يرى فى ذلك رسالة يجب عليه أن يسعى لتحقيقها، ويطالب بأن تسن القوانين لإلزام الناس بها، وتخصيص ساعة من التأمل التطوعى، بمثل ما نخصص ساعات من العمل التطوعى، لكى يكون هذا التأمل ممارسة يومية، ومهمة نؤديها كل صباح لخدمة الحقيقة والإنسان، وعلى جميع الناس فى المعامل والحقول والمدارس ودواوين الحكومة، أن تضاف إلى ساعات عملهم الرسمى ساعة تسمى ساعة التأمل التطوعى بحيث نجعل من التأمل تقليدا ثابتا وعملا يوميا جماعيا لكل الناس !

أعياد

ما الأعياد إلا مناسبات نصنعها نحن، لنعبر بها ومن خلالها عن فرحتنا بالحياة واحتفالنا بها، إنها تأكيـد للقيمـة الخالدة لوجودنا فوق الأرض وتعبير عن الاعتزاز بالصـلة التى تربطنا بتاريخ قديم عاشه أجدادنا أو جيل من أجيالنـا، ورمز لتدفق الحياة واستمراريتها وخصوبتها.

ولهذا فإن العيد ليس مجرد يوم يتكرر فى حياتنا، إنه يرتبط بهذه المعانى النبيلة ويتجدد بتجددها ويكتسب قيمته من قيمتها ولذلك فإن ما إن يأتى حتى ينشر عطرا زكيا يغمرنـا جميعاً فى أجوائه ويجعلنا نشترك جميعا فى هذه الفرحة التى توقظ فى نفوسنا أفضل المعانى وأجمل الأحاسيس، وتجعلنـا أكثر وداً وتعاطفا وتسامحا وبـرا وأقـل شـراهة وبغضـاً وكراهية ونرى الأشياء فى ضوء هذه المناسبة أكثر وضوحا وصفاء. إن خصوماتنا مع الناس التى غالبا ما كنـا نراهـا كبيرة بحجم الجبال، تبدو يوم العيد صغيرة تافهة، ما أسـهل ما نتجاوزها ونأتى نحوهم باسطين أيدينا مصافحين طـالبين الصفح والسماح مدركين أن هذه الخصومات ما هى إلا شيء طارئ على علاقة الود والمحبة والتـى يجـب أن تجمعنـا

بالناس، ونكتشف فى يوم العيد أن كثيرا من الناس الذين كنا نظن أنهم ارتكبوا فى حقنـا أخطـاء لا تغتفـر، إنمـا هـم مظلومون، وأننا نحن الذين أخطأنا فى حقهم، فنذهب علـى الفور إليهم ونجدد صداقتنا وعلاقتنا الحميمة بهم.

ولهذا فنحن نبدو فى يوم العيد أكثر قربا من بعضـنا الآخر احتفت الحواجز والمسافات، وجاء العيد يجمعنا ويعقد فوق رؤوسنا سحب العطر والعبير فنبدو وكأننا عائلة واحدة، يجمعنا مكان واحد، ونحتفل بمناسبة واحدة وأن صلة حميمة تربطنا منذ الأزل، وأننا أكثر احتياجـا لبعضـنا الآخـر... ونكتشف أننا أكثر قدرة على إظهار مشاعر الحـب والـود والتعاطف والتسامح والوفاء، حتى من كان لنا بعيدا يمنعـه مصاب شخصى من أن يشاركنا فرحة العيـد، نبـدو أكثـر حرصا ورغبة فى مواساة الأمة وتخفيف كربته وجعله قريبا منا، فرحا مثلنا بالعيد.

يأتى العيد فنجد أن تلك الروح العدائية التـى تسـود أحيانا علاقاتنا ومعاملاتنا قد اختفت وأن روحا جديـدة قـد كست معاملاتنا وأكسبتها رقة وذوقا ولطفا لم نكن لنعرفه من

قبل... وأننا أكثر برا بالناس من حولنا مما عهدناه فى أنفسنا من قبل.

ونرى الفرحة لأول مرة وهى تنتقل بالعدوى من إنسان إلى آخر حتى تشمل كل الناس، فثورة الفرح التى تغمر الأطفال فى مطلع اليوم بما تحمله المناسبة من لعب وألبسة جديدة وما تعمر به من زيارات وضيوف وزحام ما تلبث أن تنتقل لتغمر الكبار أيضا وتختفى شيئا فشيئا المناسبة التى كانت سببا لهذا العيد ... يبقى العيد وحده مجرد عائلة من البشر تحتفل بالحياة، وتعبر عن فرحتها بوجودها فوق الأرض.

وإذا كان عيد الفطر احتفالا بانتصارنا على أنفسنا أثناء الصيام.. وما يحمله الشهر الكريم من ذكرى لكل المسلمين، فإن ثمة أعيادا أخرى فى حياتنا، وفى حياة كل شعب من الشعوب، ابتعد الناس عن بدايتها ولم يعد أحد ليذكر المناسبة التى كانت سببا فى وجودها ومع ذلك فهم يحتفلون بها وتشملهم الفرحة بقدومها، تكاد أن تكون فرحة لوجه الفرحة، فالإنسان هنا لا يحتفل بذكرى مناسبة شخصية أثيرة إلى نفسه، لا يحتفل لأن ترقية فى العمل قد جاءته، أو

فريقا يؤيده انتصر فى اللعب، أو هدية سارة وصلت إليه، أو كنزاً عثر عليه فجأة، إنه يفرح لمجرد أنه يوم قـرر النـاس جميعاً أن يكون مناسبة للفرد، يوم اختاروه مـن دون سـائر الأيام وقالوا – دونما تقديم سبب واضـح أو تبريـر اليـوم سنفرح.. وخرجوا إلى الشوارع معلنين فرحتهم... مؤكـدين قدرة اللقاء الإنسانى على بعث مشاعر الفرحـة، وإمكانيـة الإنسان الهائلة على أن يرتفع – متى أراد – فـوق متاعبـه الصغيرة وهمومه وأحزانه، ويصنع دونما عون مـن أحـد، أفراحه وسعادته، وأن يشير بأصبعه على أى يوم يختـاره، قائلا :

كن عيداً

فإذا بذلك اليوم وقد ارتدى على الفور حلـة العيـد، ومضى يتفجر بالعطر والعبير والألوان !!

مقالة إنشائية عن مشاعر يتيم فى يوم العيد !!

ما الذى يجعل يوم العيد يوما يختلف عن بقية الأيام؟

فإن تسترح من هم الذهاب مبكرا إلى العمل لا يكفى لأن يصنع وحده عيداً، وأن يرتدى الواحد منا بدلة جديدة أو

يشترى لأطفاله لعبا وهدايا فهو أيضاً أمر عـادى لا يصـنع عيداً، حتى الذكرى التى ارتبط بها هذا العيد وكانـت هـى السبب القديم لنشوئه غالبا ما تتوارى بعيدا خلف الأفـق ولا يبقى منها إلا شعاع بالغ الرهافة والشفافية، وإلا من منا يذكر الآن لماذا نحتفل بيوم عاشوراء، إلا قلة عليمـة تعـرف أن طوائف دينية تجعل منه يوم حزن لأنه تصـادف وذكـرى استشهاد الحسين بن على رضى ا عنه. إذا فالذى يصـنع العيد هو الناس، هو أن ترى أن جميع الناس من حولك قـد قرروا أن يجعلوا هذا اليوم راحة من العمل، وأنهـم جميعـاً قرروا أن يشتروا وفى وقت واحد ألبسه جديدة لأطفـالهم، إذ أنهم جميعا ذهبوا فى مسيرات كبيرة إلى السـوق واشـتروا جميعهم خرافا وفى وقت واحد قاموا بنحرها، واتفقوا جميعا أن يكون هذا اليوم يوم تزاور وإحيـاء لكـل صـلة قديمـة وتصفية للخلافات والخصومات وتبادل مشاعر الود والصفاء وطلب الرضا والسماح من كبار السن فى العائلة. إذا مـاذا يحدث عندما تجد نفسك وقد جاء هذا اليوم، فإذا الناس جميعا يختلفون إلى أعمالهم، والأطفال يذهبون إلـى مدارسـهم، لا وجود لمظاهرات جماعية تغزو الأسواق لشـراء الألبسـة،

وتقديم اللعب وهدايا الأطفال، أو شراء الخراف ونحرها افى وقت واحد، لا ولائم ولا عزومات ولا تزاور ولا تجمعـات تعقد فى الساحات لأداء صلاة العيد، ماذا يحدث وأنت تـرى هذا اليوم يأتى ومظاهر الحياة كما هى فى روتينها اليومى لا تتغير والناس كل الناس من حولك يمتنعون عـن الاحتفـال بالعيد، وتظن لوهلة صغيرة أنك أخطأت الحساب وأن موعد العيد لم يأت بعد، ثم سرعان ما تذكر أنك لست سوى سـائح فى بلد أجنبى، وأن مظاهر العيد تختفى من حولك لأن للناس هنا أعيادا تختلف عن الأعياد فى وطنك، وأنك لن ترى هنـا عيدا، وستمضى يوم العيد بلا عيد، ولعل أول مـا يطـوف بالذهن هو موضوع الإنشاء القديم الذى لا بـد أنـك كتبتـه للمدرس يوما عندما كنت تلميذا صغيرا عن مشـاعر الولـد اليتيم فى يوم العيد، فإحساسك الآن قريب من إحساس ذلـك الصغير اليتيم، فها هو العيد يأتى وأنت محروم من المشاركة فيه، ها هم أهل وأصدقاء وأحبة يحتفلون هناك بهذه المناسبة يتبادلون الزيارات ويتجمعون فى ساحات القرى لأداء الصلاة ويلتقون للتبادل والعناق وأنك الوحيد الذى تخلفت وأن كـل الذين خاصمتهم واختلفت يوما معهم سوف لن يسامحوك أبدا،

وأن الفرصة التى تعيد الصفاء إلى حياتك قد ضاعت عليك، وأنك ستبقى محروما من رضا الأخوان والأعمام والخـالات والعمات، ولا بد أنك فى مقال الإنشاء القديم قد جعلت ذلـك الطفل الصغير وهو محروم من العطف الذى يسبغه الآبـاء على الأبناء والهدايا التى يغمرونهم بها – يجلس وحيدا إلـى أحد الأرصفة وهو يبكى، ولعلك الآن وأنت معـزول عـن المشاركة فى فرحة العيد، تطوف شوارع المدينة الغريبـة، تحس حقا بالرغبة فى البكاء ويمنعك كبرياء الرجال، ولقـد جعلت فى مقالك القديم حلا لمشكلة الصغير عندما جاء رجل مهيب وقور عليه علامات النعمة والثراء فأخذ بيده وجفـف دموعه وجعله يعيش فرحة العيد، ولكنك محروم حتـى مـن هذا الأمل فمن من أجل الهيبة والوقـار وأصـحاب النعمـة والثراء فى هذه المدينة الغريبة يمكن أن يعرف أزمتك وحتى لو عرف فما الذى يمكن أن يصنعه لك، أو ما الذى يمكن أن يقدمه ليعوض لحظة واحدة من تلك اللحظات حتى ذلك الجو الذى غمر البيت بعد سلخ شاة الضحية والتسابق لأخذ قطعة إلى موقد النار وأكلها مغموسة فى الرماد يبدو الآن شيئاً لـه بهجته التى لا تعادلها كل ولائم الدنيا، ولعلك لم تكـن أبـدا

تظن أن للعيد كل هذا المعنى، وأنه يمكن لذكراه أن تتـوهج فى قلبك كالجمر، فقد تعودت أن تقضيه دائمـا مـع أهلـك وتنهمك مع الناس فى مظاهر الاحتفالات دون أن تقف لحظة لتأمل جوانب البهاء والبهجة فيها ولعلك كنت تعجـز عـن تفسير معنى أن ترى صديقا أو قريبا يأتى من الخارج ويقطع عشرات آلاف الأميال لمجرد أن يقضى يوم العيـد معكـم، ولكنك الآن فقط تدرك تفسير ذلك الوهج الذى يحرق القلـب ويجعل الناس يقطعون تذاكر السفر مهما ارتفعـت أثمانهـا لمجرد قضاء يوم العيد قريبا من الأهل، ولأول مرة تبدو هذه المدينة التى كنت يوم مضـى تنبهـر بأبنيتهـا وشـوارعها وأضوائها وفنادقها ومطاعمها ومقاهيها وحـدائقها وجمـال نسائها، لأول مرة تبدو فى عينيك كئيبة خالية من الجمـال، ووطأة الغربة تزداد شدة، وصور الأحبة والأصدقاء وأطفال العائلة تظهر الآن جلية فى مخيلتك وتتـالى كشـريط فـى رأسك، تفسد عليك يومك وتوقظ حنينا غريبا إليهم، وتكتشف الآن فقط أن لهذه المدينة بردا لعينا ينفذ إلـى عظامـك وأن الطبيعة نفسها تتآمر ضدك، وأنك ستذهب الآن حـالا إلـى

أقرب شركة طيران، ستقطع إجازتك وتحجز تذكرة العودة وتسافر على التو إلى وطنك.

تجيئين كالماء وتذهبين كالريح

تجيئين كالماء

وتذهبين كالريح

وبين الماء والريح ...

بين لحظة حضورك ولحظة ذهابك لحظة صغيرة تمنحين فيها ميلادا للعشب والبرق والنار والخيل والسنابل والمدن والأقمار والأعلام والأقواس وأعشاش الطيور.

تجيئين فتطرح الأرصفة والأبنية والستائر والشبابيك والأبواب وأعمدة الكهرباء أغصانا مثقلة بالورد، وينبت الثمر فجأة فى أشجار التين والعنب والنخيل، وتذهبين فيختفى العشب والبرق والنار والخيل والسنابل والأعشاش والورد ... وتموت الأشجار..

بين زمن مجيئك المتمهل، البطيء، الموجع كالآم الولادة، وبين لحظة انصرافك المفاجئ الغادر كطعنة سكين، زمن آخر هو عمر الحلم الذى يصير مدينة، وعمر السراب

الذى تحيله معجزة حضورك إلى نهر، وعمر السماء التـى تزينها نجوم لا تحصى وقد صارت فجأة أرضا.

ولكن الحلم المدينة يصبح أنقاضا، والأرض تصـير دخانا يصاعد فى الفضاء حتى تعود الأرض سماء.

والنهر يجف ويصير سرابا كما كان عندما تذهبين.

والعاشق الذى ينتظر فى الحدائق وعلـى شـواطئ البحر مجيئك، تضربين له موعدا، وتجيئين وجها يطفح على سطح الذاكرة، ثم فجأة تركبين جواد الريح، فيختفى الوجه.

ويجلس إلى المقهى ينتظر مجيئك ... فتضربين لـه موعدا، وتأتين فى الليل طيفا ثم تفتعلين فى الحلـم خصـاما وتذهبين ويجلس إلى الشاطئ يرسم فوق الماء صورتك، لكن الماء يرفض أن يتعرف إليك، ويرسل مع الريح نداء، لكنـك لا تردين مع الريح النداء، ويفتح كتـاب الأسـطورة لكـن وجودك الحى يبقى هو أيضاً أسطورة.

يرفض أن يصدق، وينتظر حضورك الحى مع كـل فصل يجئ.

وتأتين مع الماء ... سرابا

وتمضين مع الريح ... سرابا

والعاشق الذى يجلس إلى المقهى ويذهب إلى الحدائق والشرفات، ينتظر أن يصير سرابط يوما نهراً !

جاء الربيع فهربوا إلى الشتاء

جاء الربيع ... فهربوا إلى الشتاء !

رأوا خناجره تومض تحت ضوء القمـر، فـإمتلأت قلوبهم رعبا، وفروا هاربين يحتمون بأخر معاقلى الشتاء !

فتحت حبة البدار المدفونة تحت التراب قلبها للربيع، تفجرت فى عروقها قوة الخصب والحياة، حطمت من فورها السقف الذى يمنع عنها الضوء وشقت بأذرعهـا الفولاذيـة الخضراء بطن الأرض والظلمة، وخرجت بأغصـانها إلـى الدنيا تصلى فى ضوء الصبح، وتغتسـل بقطـرات النـدى، وأقفلوا هم قلوبهم عن الربيع، أهالوا فوق رؤوسهم أكـداس التراب، نسوا الصلاة، وإختفوا تحـت الأرض خوفـا مـن خناجر الضياء!

أبصرته وهو يأتى من بعيد أسراب العصافير التـى جلست تنتظر قدومه فوق الشجرة، فهجـرت مـن فورهـا الثرثرة المملة فى السياسة، وسالت حناجرها بالغناء، وفتحت الشجرة التى كانت والفصول الماضية تلتزم الصمت وتكـره

الحديث فى السياسة ألف فم، أبصرت خناجر الربيع تتـوهج فى حافة الأفق فتخلت عن صمتها ووقارها، وصارت تغنـى وترقص دونما تحفظ أو حشـمة، أمـا هـم فقـد أرعبـتهم العصافير التى تغنى بلا حياء، والشجرة التى تـرقص فـى مجون وخلاعة، فأغمضوا عيونهم فى استنكار وأقفلوا قلوبهم كى لا تكون هدفا لخناجر الربيع، وأجهشوا جميعا بالبكاء، ثم إنطلقوا يبحثون عن شتاء يحتمون به من كوابيس الربيع.

قلت للطفل الذى قفز من داخل القصيدة وقد ارتـدى جناحين من فضة وعبأ جرابة الصـغير بالسـهام وطـاف بالغرفة ثم جاء وحط على كفي:

قل لى أيها الطفل الربيعى الذى تورد وجهـه بـدم الزهور وتخضبت أجنحته بحناء القمر هل يمكن للربيـع أن يكون شتاء؟

نعم إن ذلك يحدث عندما يغمض الناس قلوبهم عـن رؤيته، عندما يقفلون الشبابيك كى لا تتسلل شمسه الدافئة إلى نفوسهم، عندما يتنكرون لعواصفهم فتظل أحشاءهم المقرورة ببرد الشتاء لا تضيئها عاطفة الحب فلا أهمية بعد ذلـك لأن

يأتى الربيع أو لا يأتى، فلقد وجد الشتاء مخبأة داخل قلـوبهم ووقف الربيع ممنوعا من الدخول.

وهل يحدث أيها الطفل الذى أعارته الملائكة جناحين من فضة، وأسكنه الشعراء قصائدهم، وعينه الربيـع حامـل أختامه، هل يحدث أن يصبح الربيع خريفا؟ !.

نعم إن ذلك يحدث عندما يصبح قلب الإنسان قطعـة من الصحراء، عندما تهـاجر السـنابل، وتعـيش الزهـور والأشجار فى المنفى، عندها تبنى أنثى الريح سرادقا كبيـرا فى قلب الإنسان وتقيم مأتما للبكاء ويصبح الربيـع خريفـا متيبس الأطراف، أو صيفا يشعل قيظ الصحراء !

طالما أن الربيع هو دورة الحياة المتجددة الذى بدونه لا يكون نهر الحياة نهرا، وإنما مستنقعا راكدا، طالمـا هـو كذلك فمتى إذا أيها الطفل الرائع الذى يتغذى بخبـز الآلهـة متى يكون الربيع ربيعاً؟!.

إنه يكون ربيعا عندما لا يغمضون قلوبهم وعيـونهم عن رؤيته ... عندما يمتنعـون عـن مصـادرة الأشـجار والسنابل والزهور ... ويمتنعون عن إرسال العصافير إلـى المنفى.

ويمنحون الأنهار تأشيرة الدخول... عندما يمزقـون هذه الأردية والأغلفة الزائفة التى يلتحفون بها، وينزعون عن قلوبهم هذه الأختام التى يقفلون بها ويفتحون أبوابها للربيـع ويجعلونها مسكنا لزهوره وأشجاره وعصـافيره ويطـردون هذه العناكب التى طال المـدى تعشـش وتغنـى بـداخلها. ويمنحون الحب فرصة يغسل قلوبهم ويطهرها ويكنس عنهـا أكداس الرماد وخيوط العناكب، عندها فقط يكـون الربيـع.. ربيعاً !

قفلت الكتاب ليعود طفل الربيع الذى يسكن قصـائد الشعر.. إلى سريره!

وفتحت الشباك...